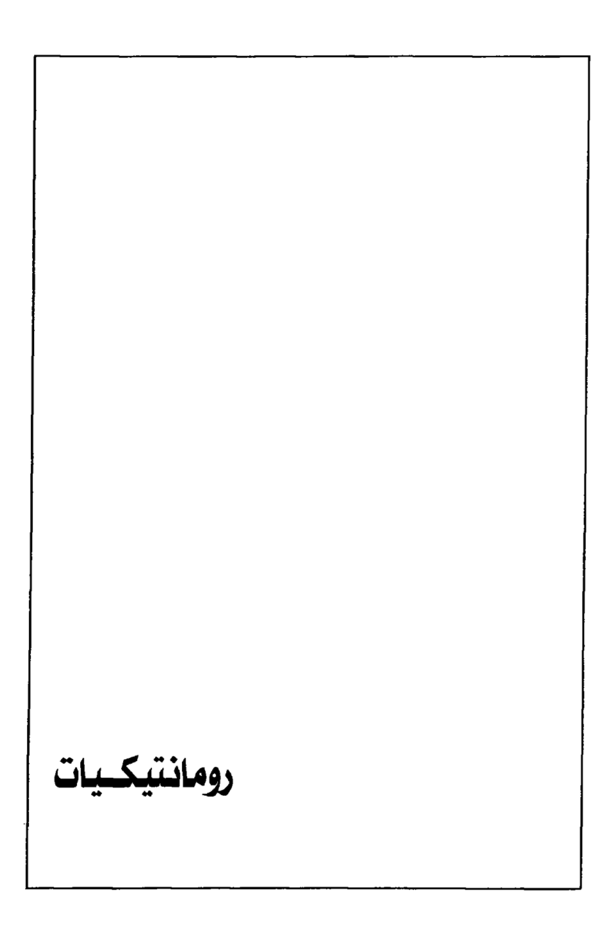
مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١ مكتبة الأسرة

الأعمال الخاصة

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

صافى ناز كاظم

رومانتيكيات


رومانتیکـیات

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : رومانتيكا

التقنية: ألوان جواش على ورق

المقاس: ١٩×٢٨ سم

محمود الهندى

فنان تشكيلى ومصمم جرافيكى، عمل بأغلب دور النشر المصرية والعربية، وتوقف عن إقامة المعارض منذ زمن طويل؛ حيث فضل صيغة المعرض داخل صفحات الكتب، فكان يتوازى مع المبدع الروائى أو الشاعر بإقامة معرض داخل الكتاب، وله فى ذلك المجال عشرات الكتب، هذا إلى جانب الكتب التراثية التى يقوم بتحقيقها وتصوير محتواها وطبعها؛ مثل: الأعمال الكاملة للحلاج، الأعمال الكاملة للنفرى، ابن عروس (السيرة/ اللوحات/ النصوص)، ديوان ألمظ وعبده الحامولى، الأعمال الكاملة للحاج مصطفى مرسى، ديوان ذو النون المصرى، ديوان ابن الفارض، كما يقوم مرة أخرى برسم نفس اللوحات الخاصة بالكتب، وتحويلها إلى لوحات زيتية كبيرة الحجم.

رومانتیکیات

صافی نازکاظم



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

رومانتيكيات

صافى ناز كاظم

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

الى أمي التي حملتني
وطفت بي العالم

صافي

تقديم

بقلم

أحمد بهاء الدين

من يدقق النظر فى غلاف هذا الكتاب ، سوف يتبين صورة « صافى ناز » وقد خلعت حذاءها ووضعته جانبا ، لكى تريح قدمها ... فصافى ناز هى المسافرة أبدا .. على الطبيعة ، أو على الورق ..

وأقوى ما يشعر به من يعرف صافى ناز هو : أن رحلتها لم تتم ، انها لم تصل بعد الى ذلك المرفأ الذى يهدأ داخله الموج ، ولا تصبح العواصف فيه غير أصوات تأتى من بعيد ، فيمكن القاء المرساة ، والاطمئنان الى السكون .

وليس معنى هذا ان « الرحلة » سوف تتم حتما ذات يوم ، بعض الناس يولدون وخاتمة رحلتهم على أول ملعقة تدخل أفواههم ، أولئك هم « السعداء » أبناء الأفكار السائدة

والعادات الموروثة والعلاقة الفاترة بالحياة ، وبعضهم يمضى أكثر من ذلك قليلا ، ولكنه لا يكاد يتقدم به الوعى وتهب عليه الرياح ، حتى يهرع الى أول مرفأ يلوذ به حتى آخر العمر . ربما كان هذا المرفأ قضية ، أو عقيدة ، أو بيئة ، أو مكانة اجتماعية ، أو نمطا معينا . وبعضهم تطول رحلته وتطول . وبعضهم لا تتم رحلته أبدا .

وصافى ناز دائما « على سفر » فى الناس وفى الفن وفى الزمان والمكان ...

ليت رحلتها لا تتم أبدا ...

ليتها لا تفقد شبابها ! .

والرحلة من بلد الى بلد ، اذا كانت مظهرا من مظاهر هذه الطبيعة فى حياة صافى ناز فهى رمز على هذا « السفر » وهذه « المعاناة » أكثر مما هى « موضوعها » ... فالسفر بهذا المعنى المسطح فى مقدور أى انسان يملك مائة جنيه ، والمسافة من قارة الى قارة قد تكون أقصر من المسافة بين كلمة وكلمة فى عالم الفكر والفن والخلق والانفعال ...

وهذا ما احتجت ــ لكى أتبينه فى صافى ناز ــ الى أكثر من وهلة أولى ...

فعندما عرفت صافى ناز لأول مرة عام ١٩٥٩ ، كانت تلك

القتاة المتخرجة من قسم الصحافة ذات الضجيج العالى فى ردهات « أخبار اليوم » بطوابقها الأحد عشر ... وكانت عائدة من أول رحلة لها ، قامت على طريقة الـ Auto Stop : متاعها القليل ـ كالكشافة ـ على ظهرها ، تطوف أوروبا ببنطلون خشن وقروش قليلة .. تعمل لتأكل ، وتكتب الى مجلة « الجيل الجديد » حلقات رحلتها المثيرة ...

ولم يبهرنى هذا كثيرا . فحكاية الفتاة التى تقف على رأسها مثلا لكى تثبت انها مساوية للرجل أمر لا يهزنى . انى أفضل الفتاة التى تثبت أنها ند للرجل بأن تصنع شيئا مفيدا ، ولكن على طريقتها . وبدا لى أن أكثر ما تبشر به صافى ناز هو أنها قد تصبح صحفية جريئة تقتحم الأهوال لكى تحصل على خبر هام أو حديث مثير ...

ولكننى بعد شهور قليلة من عملى فى أخبار اليوم اكتشفت أن لها حياة أخرى خاصة ، لا تجهر بها دائما فى ردهات دار أخبار اليوم بطوابقها الأحد عشر . كان ذلك حين جاءت الى مكتبى على استحياء ، وفى يديها أوراق مبعثرة : قصص قصيرة مرفوضة ، ومذكرات ، وتأملات ...

ولفت نظرى بشدة ، أسلوبها . هذا صوت جديد نقى . ومع ذلك ، فقد كان فى خاطرى ان كل بنات ذلك الجيل كن يكتبن

قصصا قصيرة . كانت تلك هى الموضة . وفى ذات يوم ، كان على أن أكتب مقالى فى صفحة « يوميات الأخبار » ، فاتخذت من هذه الأوراق التى دفعتها الى على استحياء مادة لمقال .. عبرت فيه عن اعجابى بما كتبت ، ولكنه كان ـ فى الأغلب ـ حديثا عن كل الفتيات اللواتى يكتبن قصصا قصيرة ...

على أنه من وقتها ، بدأ يلفت نظرى ان هذا المظهر الصاخب ، الضـاحك ، الفوار ، يخفى فى باطنه نواة من الجـد الصعب والصرامة القاطعة .

وبعد شهور ، عرفت من بعض صديقات صافى ناز أنها تستعد للسـفر الى أمريكا لدراسـة المسرح فى احـدى الجامعـات هناك ، وتجمع من صديقاتها ثمن تذكرة السفر . وبنفس الطريقة بين الجد والهزل ، كانت كل صديقة تدفع لها عشرة جنيهات ، فأرسلت لها بدورى مساهمة فى رحلتها (وبعد شهور من سفرها بدأ كل من ساهم فى شراء التذكرة يتلقى ـ بالدور ـ جنيهاته العشرة !) .

كان الظن ، عندما ركبت البحر الى نصف العالم الآخر ، أنها وقد بدأت تتفتح أمامها الفرص الصحفية الكبيرة ، ذاهبة فى رحلة أخرى قصيرة تعود منها ببريق صحفى جديد . ولكنها ـ هناك ـ غرقت فى شىء آخر تماما . غرقت فى ردهات الفن ،

بطوابقه التى لا عدد لها ، سبع سنوات متواصلة !

وكنت قد أوصيت بها ـ قبل سفرها ـ صديقين لى فى نيويورك : أكرم الميدانى (السورى) وزوجته وطفاء (المصرية اللبنانية) .. اللذين يعيشان كما يعيش كل الناس ، ولكن بيتهما الصغير فى الشارع السادس والخمسين محراب حقيقى للفن : هو فى عالم من الدراسات المسرحية ، وزوجته فى عالم الرسم والألوان . على أن أخبار صافى ناز مع الوقت أخذت تقل وتخفت . وعندما زرت نيويورك سنة ١٩٦٠ قال لى أكرم وزوجته : انها على بعد آلاف الكيلومترات فى جامعة لورانس بولاية كانساس ، حيث تعيش أختها وزوج أختها فى بعثة جامعية ...

وكانت دهشة أكثر من صحفى كبير فى القاهرة بالغة ... حين يكتبون اليها أن تعود ، لتنال هذه الفرصة الصحفية أو تلك فلا تعود ، أو حتى لا ترد ...

وبعد خمس سنوات تقريبا من سفرها من القاهرة ، كنت فى نيويورك مرة أخرى سنة ١٩٦٤ ، وسألت أكرم ووطفاء عنها فقالا : انها الآن فى جامعة نيويورك .. وأنها الزائرة اليومية لمحرابهما .. الذى كان قد تحول الى واحة لها فى المدينة الكبيرة ...

.. يومها ، فرحت برؤيتها فرحا غامرا ...

انها هى صافى ناز بكل ملامحها القديمة .. المظهر الصاخب الضاحك الفوار ، القدرة الدائمة على اطلاق النكتة الذكيـة واكتشاف المفارقة الدقيقة والضحك من القلب وغناء الموشحات ! حتى تدينها الشديد ، ودهشتها البالغة حين تكتشف أن فلانا — أيضا ! — يرتكب المعاصى اذ يشرب أحيانا كأسا من البيرة ، لم يتغير بعد خمس سنوات من الحياة فى أمريكا . ولكنها مع ذلك كانت قد تغيرت تماما . النواة الصغيرة فى باطنها من الجد الصعب قد نمت حتى ملأت خلاياها جميعا . الصحافة ببريقها الأخاذ أصبحت بالنسبة لها سرابا لا يستحق البقاء ، بينما أصبح الفن هو معبودها الحقيقى .

كانت قد حصلت من جامعة لورانس على ليسانس فى المسرح بعد دراسة قدمتها عن « يوجين اونيل » .. وتستعد للماجستير التى حصلت عليها بعد ذلك فى النقـد المسرحى من جامعـة نيويورك وتكتب دراسـة عن « يوجين يونيسـكو والمسرح المعاصر » ..

وكانت خلال ذلك كله تعيش من عملها . ابتداء من العمل فى بعض المطاعم الى العمل فى مكتب الجامعة العربية ووفد مصر الدائم بين شيكاغو ونيويورك .. حتى تتمكن من مواصـلة

الدراسة !

وفى شـوارع قرية جرينتش النيويوركية ، وعلى مقـاهى الفنانين ، سألتها أكثر من مرة : متى أنت عائدة الى مصر ؟ .. فكانت تقول : رحلتى القادمة الى أستراليا ! فالثقافة عندها غير القراءة ! والثقافة أحـد مناهلها تلك التجربة الانسـانية الخالدة : السفر ! ..

وشعرت فى بعض اللحظات ان صافى ناز توشك أن تتعرض لقدر خطير ، قد تدفعها اليها روحها القلقة .. انهـا أصبحت كسفينة الفضاء الموضوعة على منصة الانطلاق . ولكن خطأ صغيرا يمكن أن يطلقها الى الفضـاء فى مدار خاطىء ، حيث لا يمكن استعادتها ، فتظل تدور فى الفضاء الى الأبد ...

أستراليا ؟ .. لماذا ؟ ..

وذات ليلة ، حين كنا فى شقتها ذات الحجرة الواحـدة فى نيويورك ، وحيث كل جدران الحجرة مملوءة بصور صديقاتها وأهلها فى مصر .. وقصاصات من صحف مصر .. وأبيات شعر من شتى البلاد العربية ، وكلمـات أغنيات مصرية شـعبية مختلفة .. كانت تصنع لنا الشاى حين عبثت أصابعى بجهـاز التسجيل الموجود لديها ، أدير الشريط ، ولكن الشريط بدلا من أن يرتفع صوته ببعض الموسيقى أو الأغنيات ، ارتفع منه

صوت صاف ناز ، تحدث نفسها ! ..

وجاءت من المطبخ تصرخ وتحاول ايقاف الشريط . ولكننا فى لحظة من لحظات القسوة النفسية وحب اكتشاف الآخرين صممنا على أن نستمع اليه كاملا . قالت انها تجربة تقوم بها فى الحديث الأدبي المسموع ، لا المكتوب ، وأنها تمسك الميكروفون بمفردها أحيانا وتسجل لنفسها . وحاولت أن تعبث بالحديث عن حلمها وهى طفلة أن تكون مذيعة وغرامها المعروف بجمال صوتها منذ كانت تغنى مع الأطفال فى برنامج بابا شارو . ولكن الحديث المسجل على الشريط كان أكثر من ذلك بكثير .

انني لا أذكر الآن ماذا كانت تقول بالضبط . ولكننى أذكر أنه كان مزيجا من التأملات الفنية والخواطر ، والذكريات عن مصر ، والحنين الجارف الى الوطن ، والغربة .. وعند بعض الفقرات كانت تجهش بالبكاء ! ..

ولكنها ظلت ، حتى ودعتها فى نيويورك ، تتحدث عن تفاصيل سفرها المقبل الى أستراليا . وقلت لها انها لو ذهبت الى استراليا فهى لن تعود . ولكنها لم توافق على ذلك . وعدت وأنا أقول لنفسى : الصاروخ على منصة الانطلاق ، وقد بدأ العد التنازلى .. ولكن الى أى مدار ؟

***

سيجد القارىء فى بعض صفحات هذا الكتاب « .. قطعة من كتاب ألبير كامى أعلقها فوق رأسى منذ ثلاثة أعوام . القطعة تقول باختصار ان ما يعطى قيمة للترحال هو الخوف . هذا الخوف الغامض الذى ينتابنا عندما نسافر بعيدا عن بلادنا ويملؤنا بالرغبة الملحة فى العودة للاحتماء بما تعودنا عليه . هذه الحقيقة هى فى الواقع أول المنافع البديهية للسفر . فهذا الخوف ينبه حساسيتنا الى درجة قصوى تجعلنا نهتز الى الأعماق من أقل لمسة تمسنا ، ويمكننا عندئذ التشوف الواضح لأدق الأشياء .وعلى هذا فلا يجب أن نقول اننا نسافر للمتعة . ليس هناك أى متعة فى السفر . ولكنه فرصة للامتحان الروحى . المتعة تأخذنا بعيدا عن أنفسنا » ..

« من الآراء الرائجة عن السفر ان غياب المسافر يسلخه عن ثقافته أو لغته أو ناسه أو أحاسيس بلده . والعذر لهذا الرأى هو البلبلة التى أحدثها بعض الذين قطعوا تذكرة الرحلة ورحلوا ولكنهم لم يسافروا . أما الذين تشربوا بمسام جلدهم روح ثقافتهم فلا يمكن لهم أن ينسلخوا عنها ، لأنها تلاحقهم فى أعمال كل ثقافة انسانية أخرى ، ان الاغتراب تتفجر منه دائما الرغبة العارمة فى الاقتراب . الاقتراب الذى ربما لم يشعره المسافر قبل مبارحة أرضه : الأغانى التى لم يخطر له أنه

سيذكرها .. تعوم وتطفو ويغدو لمذاقها طعم عذب لم يدركه من قبل . القيم والتقاليد التى رماها يوما بالرجعية والتأخر والتعسف ، بدت لها زوايا جديدة تبررها بل وتحتمها فى أكثر الأحوال وتوضح ملامحها اللامعقولة تحت ضوء الادراك الجديد لتصبح معقولة جدا ، فالتجوال ليس محاولة لاكتشاف العالم ولكنه طريق لاكتشاف المسافر بلده وأن يجد نفسه . وشخصيا ، أعتقد أن الغربة أدبتنى فأحسنت تأديبى .. أحيانا بالعصا وأحيانا بهراوة غليظة ودائما بالحرمان . وكل مرة كنت أسمع فيها قرقعة طحن عظام غرورى كنت أحس بالتطهر والحمد الكثير » .

عندما أرسلت لى صافى ناز هذا الكلام من نيويورك لكى ينشر فى مجلة « المصور » ، عرفت ان « العد التنازلى » قد تم . وأن « الصاروخ » قد انطلق فى مداره الصحيح . وأنه فى طريقه لينزل على رؤوسنا !

وبالفعل ، عادت صافى ناز الى ساحة النقد المسرحى والأدبى كما ينزل الصاروخ . وأثارت من البروق والرعود على صفحات مجلة المصور فى شهور قليلة ما يكفى عشر مجلات . وكانت – بعد غيبة سبع سنوات – اسما جديدا وصوتا جديدا بالنسبة للكثيرين . وكان لا بد أن يتساءل الذين تصيبهم سهامها : من

تكون ؟ ..

لم يكونوا ـ فى كثير من الحالات ـ يعرفون أنها ليست هاوية ولا مازحة ، وانها فى الواقع اشترت أحقيتها فى آن تقول ما تقول بثمن كبير ، دفعته كاملا : سبع سنوات متصـــلة من الدراسة والبحث والتأمل والمشاهدة والجدل .

واذا كانت لكتابات صافى ناز ـ بعد هذه الغيبة ـ فضيلة أنها مزقت جو المجاملة والتساهل الذى ساد حياة النقد الفنى فى بلادنا زمنا طويلا ، الا ان هذا لا يمنع ان مكتبى طالما شهد المشاجرات بينى وبينها حول بعض ما تكتب من آراء وما تتخذ من مواقف ...

ليست مشاجرات « رئيس تحرير » بزميلة محـــررة . لأن ما يكتبه الناقد الفنى من حقه وليس من حق رئيس التحرير . ولكنها مشاجرات كاتبة وقارىء لها .. يقر بعض ما تذهب اليه ولا يقر بعضه الآخر .

وكنت ـ فى العادة ـ آخذ عليها غالبا تلك الغلطة ، التى لا يراها كل الناس غلطة ، وهى الذهاب بالمنطق الى آخر مداه .. مع ما قد يكون فى ذلك أحيانا من بعد عن الواقع ، واغفال لكثير من الظروف .

ولكننى أعترف أنه كان لى دائمـــا ، فى هـــذه المواقف ،

قلبان ...

قلب يقول : ان ما ينقص صافى ناز هو مزيد من « النضج » ، وما يحمله هذا النضج من قدرة على رؤية « كل جوانب القضية » ...

وقلب آخر يقول : ألا تبا لهذا الشيء الذى نسميه «النضج» الذى قد لا يكون سوى مظهر من مظاهر « تكسر النصال على النصال » ، وذبول أطراف ورق النبات الأخضر فينا ، واقتراب ساعة انتهاء الرحلة الشجاعة وسط العواصف ، والبحث عن مرفأ هادىء ، من قناعات مستقرة ساكنة !

فاذا رأيت صافى ناز ثائرة مشتعلة ، وجدت نفسى أعارضها وأضع أكياس الرمل من حولها ... واذا رأيتها يوما منطفئة الشعلة قلت لها بكل جد :

ــ متى تسافرين الى أستراليا ؟

فهى لن تكون هى .. اذا انتهى سفرها ، وتمت رحلتها .

احمد بهاء الدين

رومانتيكيات

* أمامى وردة حمراء ووردة بيضاء فى كوب ماء نصف ممتلىء . الوردة البيضـاء رائحتها مملحة والوردة الحمـراء رائحتها عسل . كلتاهما ظريفة على أية حال . الذى أهداهما لى أجابنى (وكنت قد سألته لماذا لايهدينى واحدة فقط مع أن تأثير الشىء الواحد أعمق) قال : لأنه يدفع قرشين ثمن وردة واحدة ويدفع قرشين ثمن وردتين ، وعندما قلت له : ان اجابته غير رومانتيكية نبهنى الى أن هناك شـيئا اسمه الرومانتيكية الجديدة (وهو نفسه الذىأخبرنى انالغيرة مرض برجوازى) وكنت من قبل قد سمعت عن « الرومانتيكية الجديدة » باسمها « نيو رومانتسيزم » لكننى لم أرها ، ولعل هـذا كان سبب تصورى انها تعنى عودة الرومانتيكية الفنية حيث تبدو مطلوبة

فى عالم الغرب الذى يرى الطيور كلها الآن منتوفة الريش . الطيور وهى منتوفة الريش تغرى بالذبح . الرومانتيكية تكسو العرى . والجدل حول ماهية حقيقة الطير بالريش أو ما وراء الريش ــ هذا الجدل ، هذا الجدل ، هذا الجدل سادتى : جدا يملؤونى بالسأم .

السأم : شعور رومانتيكى مثل رغبة الحرب ، التفوق ، الحماس ، الضياع . مثل رغبة الترحال : جوب البلاد لرؤية العالم أو رغبة أن ينغلق الباب ويستكن الرأس داخل الغرفة ولا تطل من النافذة العين . هذا الكلام يدفعنى الى خاطر مبالغ فيه أن الفن كان ربيب الرومانتيكية : فالاحساس الرومانتيكى كان موجودا من قبل أن يكتشف الناس اسم « رومانتيكية » .

الطائر بالريش يولد رغم أنفه ، كما ان الانسان يتصور أبدع مما يرى ، أهول مما يسمع ، ويشترى اللاشىء باهظ الثمن .

***

** الوردة البيضاء ذبلت قبل الوردة الحمراء : لن أنشغل بالسبب لأننى مشغولة بألمى : ان رسائل كتبتها احترقت . الذى أحرقها هو الذى كان يتلقاها ، وهو قطعا الذى قرأها . أنا مولعة بكتابة الخطابات ، أستريح فيها وأكتبها بسهولة وحلاوة

عندما لا أستطيع أن أتبين ملامح من أكتب له . أفضــلها على مذكراتى وعلى تدوين الملاحظات ، لذلك فخطاباتى دائما تقول كل ما أود وليس فقط كل ما أريد : دائما أكتبها وحولى سياج أخلقه وأستدعيه ليعطينى دفئا ونشوة واحساســا انى أكتب لانسان صديق قريب أحبه . خطاباتى تنتهى دائما بعد رؤيتى الشخص الذى أراسله : بعد أن أرى الهدهــد منتوفا . كل مرة أحاول أن أطلب الريش لأروح به أفشــل ويضيــع منى تسجيل حى لانطباعات فترات لا تتكرر ولا تعود أبدا شحنتها . الواضح فى خطاباتى أنها كانت أدبية ، والخطأ فى حرقها لا شك تورط وراءه بقايا النظرة المتخلفة الى المرأة والى الخطــابات بوجه عام .

***

** هذه الخطابات التىاحترقت : تلك الخطابات أرسلتها فى ٢٥ شهرا بانتظام وأنا تلميذة قصيرة أدرس المسرح بجامعة نيويورك وأعيش ــ بأكملها ــ تجربة التشرد والقيمة كانت ترسم صورتى القلقة المغتربة ، المتوترة . ترسم وقفتى فوق قطع صغيرة من فلين مخروق متــأرجح بين صخب وتوحش أمواج مدينة الحياة المختلفة . الدوار باق معى لكننى هل أستطيع أن أصيد مثل صرخاتى التى صرختها وقتها : وقت الاعصار ؟ هل

أستطيع أن أستعيد الرومانتيكية النقية وجنونها البديع ؟

كمثل الذى انكسر منه تمثال غال انحنيت الى مذكراتى ، الى خطابات لم أرسلها ، الى الشطف لعلى أستطيع أن أقيم بعضها . تأملتها وقلبتها ، وفرشتها جميعا أمامى : هل هــذه قطعة من الرأس ؟ هل هذه أصبع من اليد ؟ هذه كتبت منها البداية :

***

* نيويورك ١٣ ابريل ١٩٦٤ .

صديقى « بارك لى » أخيرا وبعد كفاح مستديم وصل الى شكسبير . فتحت الطاقة المغلقة . وجدته يتســلل الى أعماقى ويهزنى ، وفوجئت بنفسى أتفاعل معه وأحسه .. وفى المساء كان موعدى للذهاب الى مسرح « لونت فونتين » بشارع ٤٦ لرؤية محاولة « جون جيلجيد » فى تقديم مسرحية هاملت بالمفهوم الحديث . هل أنت متحمس لتسمع حكايتى عن هــذه التجربة الرائعة التى نجحت فى تحقيق المعجزة بترجمة النبضات العتيقة والعذاب العجوز وتقلهــا كأنها آلام ولدت اليوم فقط ؟ هل تعرف ان عذاب « هاملت » مثل عذابى وعذاب كل البشر : اننا جميعا نجلس على مقعد لا مسند له . لا مسند هناك تثق بالاتكاء عليه . كل الجدران آيلة للســقوط . والمشكلة ليست هذه الحقيقة : أكثر منها تلك المساند الوهمية : الكرتون التى

نراها حولنا ترسم خداعا ان كل شيء على ما يرام . هــذه الجملة « كل شيء على ما يرام » أكثر ما يغيظني في هذا العالم . الزيف هو ما أثار غثيان « هاملت » . حرك ســلوكه اللاذع بادعاء الجنون. أليس الجنون هو الثغرة الوحيدة التي تمنحنا الفرصة لنقول ما نود أن نقوله فعلا ؟ أحيانا أرى ان الجنون هو العقل الوحيد . هل تعرف كيف أرى نفسي والناس ؟

هكذا :

ا ا ا ا ا ا ا
ا ا ا ا ا ا ا
ا ا ا ا ا ا ا

أعمدة منتصبة محكوم عليها ألا ترتكن ، فرصتها الوحيــدة للهرب أن تتكور في بطن الأم أو بطن الأرض . لا أدري هل هذا صدى لما عناه شكسبير أو أنه صدى لما عنيت أن أراه ؟

***

* نيويورك مايو ١٩٦٤ .

صديقي . . .

... ...

أعجبك تعبيري في خطابي السابق :

« اليوم كنت على وشك أن أكون حزينة ولكنني لم أجد الوقت . أليس مؤسفا أن نزدحم الى حد يمنعنا من أن نجلس

الى مشاعرنا ؟ » قلت أنها دمعة لم يلحظها آحد . أشكرك على التربيتة الخفيفة التى ربتهـا على ذقنى وقد شجعتنى أن أخرج اليوم للغداء خارج المكتب . قلت لزميلتى الأمريكية : عندى موعد مع نفسى .

ضحكت ولم تفهم ، ولكنى كنت أشعر ببخار يثقل رأسى ويسد أذنى ، وعندما خرجت الى الطريق شعرت بتحرر الهواء يجفف بعض البخار الذى تكثف على جانبى وجهى . وضحكت وأصدقائى البوابون يلوحون لى على طول شارع ٧٩ يلفتون نظرى الى أنه « يوم مشمس لطيف » . وتوقفت عند صديقى بائع الزهور الايطالى واشتريت ٦ زهرات تيوليب وكرر لى أنه « يوم مشمس لطيف » وازاء هذا الاصرار لم أجد مفرا من الموافقة . مثل ت.س.اليوت : «هل أجرؤ على ازعاج الكون ؟»

وهكذا عدت الى مكتبى مرة آخرى ومعى الزهرات وأشرت الى زميلتى الامريكية وأنا أضعها فى كوب الماء : « اشتريت هذه البسمات » . لكنها نظرت الى فى سأم وجرت أصـابعها كالفئران المذعورة فوق مفاتيح الآلة الكاتبة . أوشكت آن أقول لها : « يوم مشمس لطيف » ولكنى وفرت الملاحظة عندما أقبل الرجل من طرف الغرفة ليقول لى بصوته المسطح : « الورد ده بيموت بسرعة .. هاتى لك يا شيخة ورد صناعى » . وافقته

بسرعة حتى أرحم أذنى من صوته وبقية اقتراحاته .

***

* نيويورك أول يونيو ١٩٦٤ .

قمت أصنع خبزا بدون مناسبة لكى أهرب من الكتابة . أكتب رسالة للجريدة ولا أريد . الجو حار والنافذة مفتوحة . تكييف الهواء صوته مزعج . هل يحدث لك أحيانا أن ترفض الرد على التليفون ؟ اليــوم حدث لى هــذا . لم أخرج ورفضت رفع السماعة وعلقت على الحــائط قطعة جديدة من شــعر الحبيب ت.س. اليوت الذى تكرهه . خفت منها تقول :

أقول لنفسى إبقى بلا حراك .
وانتظرى بلا أمل .
فالأمل قد يكون تمنيا .
للشىء الخطأ . وانتظرى بلا حب ،
فالحب قد يكون حبا
للشىء الخطأ . هناك بعد ايمان .
ولكن الايمان والحب والأمل ،
كلها فى الانتظار .
انتظر
بلا فكر

لأنك غير معد للفكر .
وهكذا سيكون الظلام هو النور
واللاحراك هو الرقص ؟
خفت ، لأن هذا ما أسمعه يطن بأذنى .
ستكره غرفتى لو رأيتهـا . نصف جدرانهـا يشغلها كلام « اليوت » و « كامى » وصورة « بيكيت » . وجه بيكيت ــ وبالذات عيناه ــ أعده واحدا من أهم أعماله الرئيسية : أجد فيه ما عجز عن كتابته . أعلق لصلاح جاهين قصيدة يقول فيها :
« الشمس ثلج أصفر ..
شعاعها صاروخ هوا » .

***

* نيويورك ١٥ يونيو ١٩٦٤ .
أنا لا أشعر بمرح الآن وليس لدى طاقة لمناقشة ولكنى أريد أن أأتنس بالحديث اليك لأنك بعيد ولأننى لا أتبينك بوضوح. ولأننى لا أعـرفك ، فأنت غريب يجلس بجانبى فى أوتوبيس لا رقم له ولا ينتهى الى طريق وأنا أشعر براحة مع الغرباء لأننى غير ملزمة معهم وهم غير ملزمون : « عدم الالزام » هذا هو كل ما أملك أن أقدمه للاخرين . اذا كان كلامى يضـايقك

تستطيع أن تنصرف الى النظر من النافذة أو تنام .

هل تذكر كلامك عن « جورج صاند » و « شوبان » وفلسفة المسافة وسؤالك عن رأيى فى المرأة التى تخنق حبيبها بمحاصرتها له ، أعتقد اننى أتقابل معك فى هذه النقطة وان كنت أختلف عنك فى تحديدك « المرأة والرجل » ، فأنا أعتقد أن أى « انسان » ليس من حقه أن يعرقل تنفس الانسان الآخر . أن « يطالبه » أو « يملى عليه » أو « يتوقع منه » أو « يدنى نفسه اليه » هذا ما لم توقع اتفاقية جنتلمان بين الانسانين بما يعن لهما عن كيف يكون بينهما التعامل . وفى حالة جورج صاند وشوبان لا أستطيع أن أحكم ، لا أدرى ، ربما كانت بينهما اتفاقية من هذا النوع تنص وتخول « لجورج » محاصرة « شوبان » .

كان يمكنه أن يحرر نفسه منها اذا أراد .

لا ؟ ..

***

* نيويورك يوليو ١٩٦٤ .

أدعو ألا تخيفك زياراتى المتلاحقة . أنا أحب شهيتى هذه للحديث معك وحماسى هذا الذى أشده برفق من سبات أوقعه فيه ارهاق وتعب كبير . اننى أراقب نفسى بفرحة « أم » ترقب

طفلتها وهى تعاود الجرى والضجة ولا يهمها فى فرحتها ما تسببه ابنتها من ازعاج للجيران . وأحب جلستى اليك من وراء الغيمة : صديق له صبر .. يا للأعجوبة !

... ...

.. ..

.. ..

أريد أن أنفى عن نفسى تهمة « رواقية » ــ و « عقادية » فأنا أحب العقاد ــ ولكنى لست « رواقية » ولا « عقادية » فحضور الرواق لا يعنى دائما « الرواقية » وحبى الشـــديد للعقاد لا يعنى أنى « عقادية » ــ لا يعنى انى مثل هؤلاء الذين كانوا يلتفون حوله ويتكلمون بلهجته وبصوته . أنا دائما كنت أتحاشى أن أصبح مثلهم . كنت أجلس بينهم وأسمعهم يتحدثون عن العقاد ــ وأحس أنهم يتكلمون عن عقاد آخر لم أقابله ولم أحبه . كانوا يضفون عليه تعصبا وجمودا لم أره فيه أبدا ــ ولكنه كان حرفتهم ، وأنا أكره الاحتراف ، أكرهه فى كل شىء . لأن الاحتراف فيه صنعة والزام وتحديد وإرغام وتوقع ، وهذه أشياء أحس بها تسد مسام جلدى . أنا لست صحفية محترفة أو كاتبة محترفة أو تلميذة محترفة أو رحالة محترفة أو صديقة محترفة أو محبـــة محترفة كل شىء لدى « هواية » فقط .

أكره أى كلمة فى مضمونها « تقريع » ، لأن فى مضمون التقريع ارغام ، ولا يمكن أن ترغم هاو على تنفيذ هوايته ــ لماذا اذن هو هاو ؟ لا يعنى هذا ان الهاوى لا يقوم بعمل ــ بالعكس انه يتميز بالاتقان عن المحترف ــ فالمحترف لأنه ملزم ومطالب بمواعيد وكميات وطقوس واثباتات وأدلة وكشف انتاج وفاتورة حساب وورق دمغة ، أراه يلفق ويكلفت ويهتم « بالتبرير » أكثر من الأداء واستحضار المظاهر أكثر من التعب فى تعميق الجذور ، بالاضافة الى عينه المتلهفة المتوقعة المطالبة دائما بالفائدة ، بالمكسب ، المتبجحة برفع دعوى بالحقوق .

هل تذكر الجملة المشهورة : « لماذا تحبينه .. انه لايستحق» هذا يحدد منطق المحترف ــ المسألة عنده حفلة توزيع جوائز ــ أما منطق الهاوى ــ منطقى فلا يرى الحب أو العطاء أو البذل أو الصداقة سوى مسائل منفصلة تماما عن الاستحقاق أو عدمه لا يحق لأحد فى هذه الأمور أن يطالب بالثمن أو يتوقع الثمن . لايجب أن تتوقع ولايجب أن تتمسك ، هذا هو منطق الهاوى .

....

** هذا الأسبوع ضايقنى شىء .

لم تضايقنى حقيقة انى أقوم بدور مستمر كدليل نيويورك الحى . ولم تضايقنى جيوش الأصدقاء الوافدين دائما الى

نيويورك بلا انقطاع ودورى الروتينى فى اصطحابهم الى معرض نيويورك الدولى ، رؤية نفس الأجنحة كل مرة : برج النور ، فورد ، جنرال الكتريك ، جنرال موتورز ، جناح ج.ع.م. ، جناح الأردن ، مطعم الجناح السودانى ، طبق الكباب ذاته ، وساندوتش الطعمية عينه ، نفس الانبهار والتعجب والضحك : كل هذا لم يضايقنى ، لكن الذى ضايقنى زوجات الاصدقاء ، وعفريت الشراء ، وعقدة النايلون . لم يرين شيئا سوى حوانيت « ففث أفينو » . شعرت بغيرة على نيويورك ، شعرت ان سلوكهن هذا اهانة كبيرة لحبيبتى الرائعة الجميلة .

ما هذا ؟ هل نيويورك مجرد حانوت لبيع الأطقم النايلون والأقمشة ؟ أنا أيضا أحب ان أشترى وألبس وأرى ، ولكن ليس هكذا أبدا . مرة أخرى نساء يحترفن الأنوثة ، يحترفن الشراء كأنه فضيلة وجودهن الوحيدة وعندما ودعتهن ، فى انتظار الفوج القادم ، دمعت عيناى وأنا أحاول أن أصل برقبتى لأبوس نيويورك فى سمائها وأربت عليها فى اعتذار .

***

* نيويورك أغسطس ١٩٦٤ .

... ...

نعم أحب نيويورك بشكل خاص .

أحبها لأسباب كثيرة أهمها انها قاموسى المفتوح الذى يفسر لى الظواهر الأمريكية الكثيرة التى عشتها خلال السنوات منذ وصلت أمريكا فى أغسطس ١٩٦٠ ـ أربع سنوات طويلة ـ كيف عبرن هكذا سريعا ؟

المسارح والطقوس الثقافية التى تعج بهـا نيويورك ليست سوى مادة ثانوية فى قاموسى التعليمى هنا . ان جلوسى بأى مقهى على قارعة الطريق مادة تعليمية غزيرة فى حد ذاته . من الأشياء التى استرعت اتتبـاهى منذ الأيام الأولى لوصـولى نيويورك ملاحظتى للنسبة العالية من الذين يتحدثون الىأنفسهم بصوت عال فى الطريق ، فى الاوتوبيس ، فى الحدائق العامة . عجائز ومتوسطون فى العمر وشباب . وتبين لى ان هـذا أحد الملامح الأساسية للمدن الامريكية الكبرى وبالذات نيويورك (من أهم ملامح نيويورك الأخرى رائحة القهوة المكثفة عبقها الدائم ، وصوت صفارة عربة النجدة والحريق المستـمر بلا انقطاع) .

نيويورك مدينة سـكانها فرادى ، كل فرد يعيش فى غرفة وحده أو مع شريك غرفة لا علاقة له به سوى أن يقتسم معه نفقات الايجار . معاناة شاملة لوحدة رهيبة لابد من التـأقلم بها . ومع هذه « اللابد » يبرز وجه « السيكايتريست » ـ

المعالج النفسى ــ الذى من وظيفته أن يمتص أو يفرغ الضغط المرهق الذى يتولد من « اللابد » . لكن « السيكايتريست » الذى يتقاضى فى الساعة الواحدة ما يتراوح بين الثلاثين والخمسين دولارا لايستطيعه سوى الأغنياء ، والأغنياء فقط . يذهبون اليه بانتظام من أجل أن يتكلموا . يتكلموا لمدة ساعة بلا انقطاع يخففون خلالها عن أنفسهم ضغط أسلوب الحياة المحيطة بهم .

بدون استثناء : كل أغنياء أمريكا ومثقفيها وفنانيها من زبائن « السيكايتريست » وتجد لذلك كلمة المعالج النفسى هنا من الكلمات الدارجة فى الحديث اليومى مثل دكتور الأسنان والسينما والمسرح .

يتبقى الذين لايملكون المقدرة المالية التى تتحمل نفقات المعالجين النفسيين : هؤلاء هم الذين نراهم منطلقين فى الطرقات يكلمون أنفسهم كيفما شاءوا ، وقد تجد منهم اثنين أو ثلاثة فى أوتوبيس واحد ، كل يكلم نفسه ، وقد تتصور ان هذا منظر مسلٍ أو مضحك ، لكن الواقع انه مؤلم جدا ، خاصة عندما تحاول أن تنتبه الى الكلمات التى تتردد فى هذه الهلوسة الفردية . معظم الكلمات تدور حول حساب أرقام ، حول ان العالم انتهى ولم يعد هناك أحد ، حول ندم ، حول يأس .

تحس على الفور بالكسر الذى حدث داخل هؤلاء الناس بسبب حمل أوضاع اجتماعية وضغوط ليس فى مقدور الجهاز العصبى العادى أن يتحملها .

وكل زائر لنيويورك لايمكن أن يفوته التنـاقض بين رؤية ناطحة سحاب شامخة عالية فى كبرياء ، ناضرة براقة وتحتهـا يمشى شىء منطفىء مكدود ويتبين انه انسان أمريكى يبدو عليه كأنه لم يأكل أو ينم منذ أيام وفى جيبه زجاجة خمر رديئة النوع ويكلم نفسه بصوت عال متكسر . هـذا التناقض الظاهر بين هذا الانسان وبين ناطحة السحاب يجعلنا نربط فورا بينهما . ونجد أمامنا حقيقة رهيبة هى ان الانسان فى المجتمع الامريكى قد تحول الى مجرد سماد يتغذى عليه شجر ناطحات السحاب . وهذا يا صديقى ما جعلنى أكره دائما ناطحات السحاب كما قلت لك مرة ، كلما سرت تحتها رجتنى قشعريرة باردة ، أحس أنها سفاح محترف لا يحب مهنته فقط بل ويتباهى بها أيضا .

وبهذه المناسبة أذكر ان أجمل المسرحيات التى قرأتها ورأيتها هنا مسرحية اسمها « قصة حديقة الحيوان » لادوارد ألبى . المسرحية تدور فى مدينة نيويورك ، وتصور نموذجا لشاب عاطل وحيد : نموذجا يجمع كل الملامح التى ذكرتها عن الذين يكلمون أنفسهم .

تبدأ المسرحية فى حديقة « سنترال بارك » الشاب يحاول أن يرغم رجلا على أن يتبادل معه أى حوار ، والرجل يريد أن يترك وحده ليكمل قراءة كتابة . انه نموذج غير المكترث المتأقلم فى قالبه — طبق الأصل لصــورة البرجوازى الامريكى الذى تجمدت انسانيته تماما واستراح لذلك وفضل أن يعيش الصورة الخارجية للحياة بين زوجة وطفــل وطفلة وكلب وقطة ومكتبة وعربة وتليفزيون وطعام معروف وجدول يومى لا يتغير ، وعدم رغبة وعدم قدرة على أن يحس بمشكلة انسانية الى جواره —

ونجد ان الشاب فى محاولاته العنيفة لارغام هذا الرجل على الحديث معه لايريد فىالحقيقة الا أن يتحدث هو نفسه ، وتكون المسرحية فىالواقع « مونولوج » — حديث فردى يحكى فيــه الشاب صورة حياته البائسة فى غرفته المظلمة فى أحد أحيــاء نيويورك العفنة . يحكى عن غرفته وغرف جيرانه ، عن دورة المياه الواحدة لعشر أسر ، وعن الغرفة الواحدة لأسرة مكونة من عشرة أفراد وصــاحبة البيت المقززة وأساليبها الاستغلالية المبتذلة .

ومن خلال تسلسل المسرحية وحديث الشاب نحس بالمأساة التى يحس بها الفنان الصــادق فى أمريكا — مأســاة الادراك العميق بأن المجتمع الامريكى بشكله الحالى لم يعد سوى حديقة

حيوان ، لا يشعر الانسان حياله بقيمته كانسـان الا لحظـة اختياره أن يرفضه ، أحيانا بالانتحار وأحيانا بالعنف وأحيـانا بالسلبية : سلبية الهرب فى المخدرات واليأس .

ترى هل صرت أنا كذلك واحدة من سكان نيويورك ؟ هل حديثى معك ليس سوى مونولوج حتى لا أكلم أنا الأخرى نفسى فى الطرقات ؟

***

* نيويورك ١٨ اكتوبر ١٩٦٤ .

هذه المرة لم يكن خطابك مفاجأة ، ولكنه كان معجزة . كنت قد وطنت نفسى على ان حوارنا قد انقطع ، ولا أخفى عنك انى حزنت ، وخاطبت صافى ــ وكانت تتأهب للخروج الى حفـلة كونسير ــ : رايحه تسمعى لى مزيكة ؟ وحتى جلست فى الحفل بين الناس لم أبرحها :

ــ « قاعدة والناس فاكراك بتفهمى ولابسة نظارة وعاملة عاقلة وكبيرة ولا حد منهم عارف ان صاحبك خلاص ما بقاش صاحبك . فالحة . آهو كده كل مرة تزعلى صاحب منك » .

ــ « طيب خلاص ومانيش مصاحبة حد فى الدنيا خالص . وانا كده غلسة أحسن . ياحبيبتى ياصـفصف ياحلوة .. بس يا ماما وحد كان غصبهم يلعبوا معاك ولا تسمعى لللى بتزعق

لك دى . عارفه شفتى لك ايه امبارح ؟ فســتان هايل شـكله عبيط يليق عليك خالص . عشان ما حدش يقعـد يدمع كده وسط الناس الا اذا كان عبيط . شوفى « ولهم كمف » آهوه . الله شوفى صوابعه مرنة ازاى . وشوفى شكله طيب . اسمعى بقى بتهوفن حايقول لك ايه . هس .

حا اجيب لك شيكولاتة فى الاستراحة .

ــ مش عاوزه !

ــ طيب عصير برتقال واتعدلى بقى أحسن لك ، احنا قلنا ما فيش زعل على أى حد .

الاستراحة : فى اليد كوب عصير برتقال وباكو شيكولاتة .

ــ هه أحسن ؟ شاطره صافى ناز صفوى زاده

ــ معايا برنامج واحد آخذ برنامج ثانى أكتب له فيه عن المزيكة ؟

ــ وبعدين قلنا خلاص . خلاص الكلام من هنا ورايح مع ألفريد جارى الباتافيزيكى .

ــ طب خــدى برتقالك يا الله مش عاوزه أشرب حاجة ــ يا صاحبى الحقنى .

كان هــذا فى أولى ليلتى عزف البيانو « لولهم كمف » ــ وجاءت الليلة الأخرى أول أمس وكنت أتوقع رسالة منك فى

الصباح ، ولم أجدها . وذهبت الى مكتبى ووقعت فى يدى مجلة « هى » وبها أخبار وأشياء لم أكتبها لكنها منسوبة الى ، وأحسست برغبة فى القىء – ألم يعلموا بعد اننى عندما لا أكتب عن الشارع الخامس وما يسمى أخبار مثيرة انى أفعل ذلك عن قصد ؟ هل يكفى خطاب استقالة أو أرسل خطاب تهديد بالقتل ؟

ودعانى رئيسى بالمكتب الذى أعمل به هنا وقال لى كلاما لم أفهم له أول من آخر ولكنى قلت بسرعة : « حاضر ياأفندم ! »

ولكن يبدو أنه هو أيضا لم يفهم كلام نفسه فقال لى بحدة : « انتى مش حاتبطلى أدب القرود ده ! » .. «حاضر يا افندم » وخرجت وأنا أقول : « يكفى استقالة واحدة فى اليوم » .

وجاءت جرائد بعد الظهر وقرأت بختى يقول لى : « لمى لسانك وبلاش خناق » . ولمت شنطتى وذهبت لأنام ساعتين فى محاضرة أستاذ المسرح الأمريكى ، وأفقت الساعة الثامنة وكانت الشمس قد غربت تماما . وجريت أسابق الساعة الثامنة والنصف وجلست الى موعدى الثانى مع « ولهم كمف » وعزف شوبرت ثم شومان ووجدت رأسى تلقائيا يكتب لك رسالة ، وأعجبتنى واستخسرت أن تظل برأسى ولا أكتبها على ورق وعدت الى البيت وبدأت أكتب ثم توقفت . خطر لى ان كلامى

لك يصلح نواة يوميات ظريفة « للأخبار » بعنوان « خطاب الى صديق فقدت عنوانه » وبدأت أعدل بشطب فقرات وتحـديد أجزاء وزيادة سـطور وتظليل معـان ، فما الفرق بينك وبين القراء ؟ كلكم أغراب عنى وكلكم وثيقو الصلة بى .

* خطاب الى صديق فقدت عنوانه :

أنا لم أصل الصباح بعد ولكنى أعلم اننى عندما أنتهى من هـذا الخطاب ستكون غرفتى مضـاءة بلون الفجر الأزرق . قطتى « رشا » الصغيرة تجلس فوق كتفى نائمة وأحس بتنفسها الدافىء يؤنسنى . الساعة تقترب من منتصف الليـل . بداية صحوتى الحقيقية تلك الساعات التى تلى منتصف الليل . اننى أنام النهار ، بمعنى اننى لا أعيه ، ولا أحسه ولا أحبه ، فأنا لا ألتقى فيه بنفسى أبدا ، لا أتكلم لسانى ، ولا أحكى لغتى وعندما ألتقى بنفسى أحس برغبـة فورية بالانطلاق وتعويض صمت النهار ، ولا أكف عن الحديث كتابة أو أحلاما أو مبادلة أفكار مع « رشا » .

« رشا » قطتى التى يعنى اسمها الظبى الصغير — ليست مثل « تشارلى » كلب شتاينبك . فأنا لا أحب الكلاب . لا أحب الولاء الأعمى والاخلاص الذليل ، وليست مثل «حمار» توفيق الحكيم . انها ذكية جدا . وجميلة بانسجام ألوانها غير

المتوقع ، ولها كبرياء وشخصية مستقلة ، معتدة ، ثورية — ان اندفاعات آرائها تخيفنى أحيانا وتجعلنى أبدو كأننى أنا «حمار» الحكيم . هل تعرف ؟ مهم دائما أن يكون هناك شيء غير آدمى تناقشه بما يخطر لنا ونسمع منه اجابات منطلقة خارج قيود المعقول .

قبل أن أبدأ بالكتابة اليك كنت أناقش مع « رشا » كتابا اشتريته منذ شهر « مجموعة خطابات روبرت فروست » وقلت ان علاقتى مع « فروست » علاقة عاطفية وفنية ، فأنا أحب وجهه . وكنت سعيدة عندما جلست منذ عامين فى آحد مسارح شيكاغو الكبيرة أستمع اليه يحكى جولته فى الاتحاد السوفييتى ويلقى لنا مجموعة من أشعاره . انبهرت عينى بأعوامه الـ ٨٧ القادرة ، وتعلقت بهالة مبعثرة من شعره الأبيض المندوف تحيط برأسه وتحيط بعينيه ، وحبست أنفاسى مع كل المزدحمين تترقب تحركات شفتيه . كان هناك حب يربطنا بالشيخ ، وكان هناك تساؤلى : هل هو حب مرتبط كله بعبقرية الشاعر وفنه ، أم هو تلذذنا بخيوط الأبوة والنبوة التى يعكسها صوته ، ووجهه ومرحه ، يريح فينا شعورا مستكنا بالبنوة ؟ وعند باب الخروج كنا ننتظره . ولأول مرة شعرت برغبة فى التزاحم وتزاحمت ، ووصلت اليه ولمسته كأنى أود أن أتأكد من ماديه وجوده .

وبعد شهر ، قرأت الصحف فى يناير ١٩٦٣ وعرفت انه مات .

وعندما مات جمع « لورنس تومسون » ـ مترجم حياته وألصق أصدقائه به ـ خطابات الشاعر الشيخ الطيب ، جمع ٥٦٦ خطابا كتبها الى ١٢٣ صديقا ، ومعرفة ، وعدوا ، وخصما . وكتب «تومسون » مقدمة يحاول أن يمهد بها لمفاجأة قال إنها ستخيب أمل الكثيرين فى الصورة النورانية التى أجاد « فروست » تمثيلها على خشبة المسرح وعلى صفحات دواوين شعره . فان خطابات « فروست » تكشف جانبه الأنانى ، القاسى ، العصبى ، الخائف الغيور الذى يهده شعور غائر بالنقص ، وان هذا الوجه القبيح « لفروست » لم يكن الذى يثير قلقه ، كل قلقه كان متركزا فى ألا يحب الناس شعره . والذى فهمته ان « تومسون » يريد أن يلفت وجهنا الى رسائل « فروست » على أنها حقيقته كانسان ، لا أدرى يا صديقى ولكن شيئا من التلبك الفكرى حدث لى عندما وصلت الى هذه النقطة مع « تومسون » . لماذا نعتقد أن خطابات فروست تعكس حقيقته كانسان أكثر مما يعكسه شعره ؟ أنا لا أعتقد أن هناك حقيقة واحدة للانسان على أية حال ، وخاصة الفنان . ما معنى حقيقته ؟ هل هى حياته اليومية ؟ هل هو حديثه على مائدة الغداء ومناقشة أسعار كيلو اللحم ؟ أم هى الأبعاد المجردة

التى يصورها فى لحظة خلقه الفنى ؟ لا أستطيع أن أجزم برأى قاطع ولكنى أختار دائما الصورة التى يعكسـها العمل الفنى للفنان ، فأنا أحس ان حقيقة الفنان فرصة انعكاسها الفعلى هى تلك اللحظة من الانطلاقة الفنية . اننى أرى الفن هو التعبير ، هو الرغبة فى أن ننقل للآخرين ما نراه ، ما نعتقده ؛ ما نحسه ، ثورتنا على خطأ ، احتفالنا بجمال ، حماسنا لشعور ، شهوتنا للحياة .. الخ . ومقاييس هذه الخطوط تختلف من فنان لفنان ، بناء على ما احتقن بداخله وهزه وجعله فنانا . هو الصدق، ليس فى سرد وقائع الحياة اليومية والشخصية ، ولكن فى أن يقول الفن شيئا عجز عنه نفاق الصباح ، أن يحقق مسئولية ما يراه خطأ ولا يملك الا أن يتغاضى عنه ، أن يكفر عن ضـحكات جبانة لا تستطيع الا أن تكون . ان الفن عنـدى هو منفـذ الشجاعة الوحيد التى يفتقدها الفنان فى حياته اليوميـة ، انه لحظة خلعه للثياب التى يرتديها لتلائمه مؤقتا مع الجمع الغريب : لحظة شعوره بأنه وحده ، ان بوسـعه أن يتجرد من الدور وأن يصفع الوجوه بصرخته الحقيقية أو يربت عليها بحنان لم يحققـه لنفسه . أعتقـد ان معنى كلامى هـذا اننى أخالف « تومسون » وأرفض مفـاجآته ، فكل ما ظهر فى خطـابات « فروست » بصورة قسوة ، أو سلاطة ، أو عنف ، ليس سوى

جلد القنفذ الذى لبسه الفنان فى حالة تعامله مع جمهور وحاجات الحياة اليومية . ولكن القنفذ الصغير الضعيف الطيب فروست ، ظل قابعا داخل جلده يكتب حنانه الذى يفيض به وجدانه فعلا.

هذا ما كنت أناقشه مع « رشا » وهو غير ما أردت أن أكتبه لك فى الأصل عن خواطرى التى طفت فى مرونة الدخان وملأت رأسى وأنا جالسة ألاحق مرونة أصابع « ولهم كمف » ــ العازف الألمانى الكبير ــ وصل الينا هنا فى نيويورك ليعزف لأول مرة للجمهور الأمريكى ولى ، ولا أدرى السبب فى ارتباطه بأن يعزف ليلتين فقط . عزف أولا سوناتات من بتهوفن وكنت قد سمعت مرة أن الألمان يعزفون بتهوفن بفتوة وضخامة ، وأنا لا أستطيع أن أنكر الحياة فى تفسير « كمف » لسوناتات بتهوفن ولكن الرقة الحساسة كانت تعبيره عن الحياة .

وأحببت ان جسمه لم يتصلب ورأسه لم يقع على أصـــابع البيانو فى العصبية التقليدية لعازفى البيانو ــ مثل عازف امريكى هنا اسمه فليشر . كل مرة أذهب لأسمعه أحمـــد الله اننى فى أعلى البلكون وليس معى نظارة مقربة . أما هذه المرة فتعمدت أن يكون مقعدى متطرفا فى الصالة وقريبا من « كمف » . واتتبهت الى أصابع العـــازف الذى يقارب شـــبابه السبعين ، أحببت مرونتها ، وتعبير وجهه الهادىء ، وتذكرت عمى عندما

كان يعزف لنا ويتناثر شعر رأسه على جبهته ثم يزيحه ليقع مرة أخرى وضحكت فى شجن . كل مرة أتذكر فيها عمى لا بد أن أضحك فى شجن . نحن لا نعرف أين عمى الآن . هل توفى أم انه ما زال على قيد الحياة . اختفى فى العراق منذ سنوات ولم نعرف ماذا حدث له ؟ هل قتله لصوص ؟ هل دفعه الحب الى كربلاء أو مشهد ؟ أو رحل الى أصفهان يستقصى بستان أبيه . أبى كان أخاه الأكبر ولكنه لم يكن مثله ، لم يكن لديه ذلك الحنين الى ايران منذ جاء أبوه ليستوطن مصر مع السنوات الأخيرة من القرن الماضى . كانت هجرة جدى سياسية هربا من اضطهاد حاكم أصفهان له وكان صديقا لصيق الصـلة بجمال الدين الأفغانى ، يشربان النرجيلة معا أمام دكانه للسجاد العجمى ــ المكان المقابل لوزارة الحقانية القديمة بالاسكندرية ــ أبى لم يعلمنا حرفا من لغته ، كان لا يحب ان يضعنـا فى ازدواجيـة الولاء لمكانين وكان يعرف اننا سنكون أبناء مصر .

وان كنت أعلم ان حماس أمى العربى المشتعل لم يكن ليترك له مجالا لقرار آخر ــ أما عمى فكنت أحس فى عينيه الجميلتين ذلك الشعور الدائم بالغربة ، يزيده ولعه الشديد بالجدل الذى كان يضعه دائما عربيا بين الايرانيين وإيرانيا بين العرب . كنت أحب عمى « عباس » وأنظر اليه دائما باعجاب وانبهار . لم يكن

هناك شيء لا يجيد عمله وكنت أحس أنه لن يموت مثلنا . سينتشر مثل « الخضر » سيكون حاضرا وغير حاضر كما كان يحب أن يحكى لنا ونحن صغار .

بدأ البرنامج بشوبرت وشومان وانتهى ببرامز . وشدتنى جملة من برامز ، وتصورت برهة انها تنادينى باسمى وأوشكت أن أقول « أفندم » ولكننى غرقت بسرعة فى خاطر اننى دائما أتحاشى اعلان محبتى لبرامز ، فأنا أخشى التهمة المستترة التى ستجول بخاطر الآخرين ، الذين سيسألوننى فورا : « انتى بتحبى فرانسواز ساجان » وقلب الخاطر شفتى ، وزاد فى قلبها وجه الرجل الذى يجلس أمامى ويدير رأسه ليهمس فى أذن سيدته . وكرهته كرها صامتا : كرهت تناقض تعبير عينيه مع تعبير فمه وتذبذب محاولته فى أن يهمس أو لا يهمس ناظرا كل لحظة الى المسرح فى قلق كأنه يتعجل انتهاء البرنامج ليهمس بحرية . وأغمضت عينى حتى أريحها منه ، فهمت الآن لماذا اشتعل تصفيقا عند انتهاء الفقرة الأولى من البرنامج ، أنا لم أصفق . أنا أصفق فى النهاية فقط . التصفيق المخلص يهد الحيل ، وأنا أكره أن أستمع الى موسيقى أحبها وأنا ألهث . لابأس فى أن ألهث فى قطار تحت الأرض ، وخطرت لى أم كلثوم وأغنية « لا .. يا حبيبى » التى أحبها . كلمات هذه الأغنية .

لحنها ، صوت وأداء أم كلثوم لها ينقــل الى تعبـيرا عميقا متغلغلا يوجعه دائما صراخ « السميعة » . هؤلاء « السميعة » أبغضهم مثل بغضى لذلك الرجل الذى كان يجلس آمامى . والمشـكلة ان أم كلثوم اتخذت تقليدا منذ البــداية فى تدليل أعدائى هؤلاء ، يصرخون ويولولون : « أعد .. » فتعيد الفنانة التعبير الذى تنزفه : « الحب هوه الود والحنية .. » فيصـــل حدهم ، ويصرخون اســتعارا . هل مسهم حقــا ؟ اذن كيف يصرخون ؟ أنا لا أصرخ عندما يمسنى الود والحنــان ، اننى أتحاشى حتى أن أتنفس ، ان أزعج لحظــة انطلاق المشــاعر الحلوة .

« رشا » نائمة فى استغراق ، والفجر مختف خلف الضباب الكثيف . أتوقف الآن ، وأبدأ النوم .

***

* نيويورك ١٩ نوفمبر ١٩٦٤ .

أنا أرى الحب شعورا رائعا ، بسيطا ومعجزا مثل شــعاع الشمس فى شتاء مصر . مثل كرة البنج بونج الرشيقة الرقيقة التى لا تتحمل غلاظــة الأيدى الركيكة والضربات الكســولة والحيل المعقــدة وما دام الأمر كذلك فما هو الخطـير فى أن يلعب الانسان بنج بونج ؟ وأنا لا أؤمن بالرقابة الداخليــة فى

التعبير عن الحب . لو خطر لى وأنا جالسة فى مجلس اللوردات الانجليزى أن أقف وأقول : « على فكرة ياحبيبى .. أنا أحبك » لن أتردد لحظة ولو احترقت شعورهم المستعارة كلها غضبا .

منذ أسبوع كنت أتفلسف على فتاة أمريكية تحب صديقا لنا من مصر ، ويبدو أن كرة البنج بونج النحيلة بينهما أصبحت كرة قدم ، وقلت لها فيما قلت ان الرائع فى الحب هو البهجة والاغداق وعدم التفكير وامتيازات اللامنطق وهذا الايقاع فى نقرة الكرة الملقوفة بين المضربين ، ولا معنى للمواصلة مع لاعب لايرى الكرة أو يتكاسل فى لقفها أو يأخذها ويرش عليها ملح وفلفل ويأكلها بيضة مسلوقة . ولم يعجبها كلامي ، وأنا لا أتعظ أبدا فى توجيه فلسفتى هذه التى أعرف أنها لا تعجب أحدا ، خاصة هؤلاء الذين يأزمهم الحب . منذ سنوات كتبت الى صديقة أقول : « كل منا يصنع ما يريد حتى وان كان عقله يرفض هذا الذى يريده » .

أمر بفترات ونقلات فلسفية ــ ان شاء لك أن تطلق عليها هذا القول ــ غريبة ، ومختلفة ، ومتنوعة ، ومتناقضة . أنا حزينة الآن ، أعنى هذه اللحظة ، ليس حزنا باكيا ، ولكن ثقيلا . لعله الخريف الرائع الألوان ، لعله الشجر الأحمر والبنفسجى والأبيض الذى يحيط كل مكان ، لعلها الرائحة العذبة التى

تستنشقها منافذ جلدى ، لعلها التجارب الذرية ، لعلها مسئولية العالم التى أحسها .

خطر لى فجأة اننى لا أريد أن أتزوج أبدا ، لا أريد أن أقيد خيمتى بأوتاد تشدها الى أرض ، الا اذا قابلت مجنونا مثلى ، وان كنت أشك فى لقاء أى مجنون : للأسف يبدو ان كل من على الأرض عقلاء .

وماذا أريد أن أحققه اذن من الحياة ؟

اكتشفت أخيرا اننى لا أريد أن أحقق شيئا بالذات . وانما كل ما أحققه سيكون بالصدفة . على الماشى . فى لحظة استراحة وأنا أتفرج . كل ما أريده من الحياة أن أتفرج عليها وأن أقارن بين ما أتخيله عنها وما يبدو منها حقيقيا .

أنا ممتلئة بالاهتمام هكذا يقول عنى الناس . وأيضا بالحيوية والطاقة والصراع وأحيانا أبدو جادة الرغبة فى البناء وفى الوصول الى حلول ، ولكنى لا أعنى فعلا أن أكون هكذا .

***

* نيويورك ٥ ديسمبر ١٩٦٤ .

أنا سعيدة بوصول ديسمبر فأنا أحب الثلج المندوف . أرش عليه السكر وآكله مثل غزل البنات . ولكن الثلج خيب أملى هذا العام ولم يملأ كفى بعد . ديسمبر بلا ثلج وبلا ضباب

كاف ؟ كيف أتحمل ذلك ؟

***

* نيويورك يونيو ١٩٦٥ .

لن أكتب لك كثيرا اليوم لأنى حزينة وأنت لا تحبنى وأنا حزينة . ولذلك فسأؤجل حديثى حتى يذهب الثقل . أشعر بوحدة شديدة اليوم . ولقد بكيت أيضا . أعتقد ان السبب هو حفلة الاستقبال التى كنت بها منذ ساعات . أكره الفتى الذى كان يعجبنى . أحس ان اجهاضا حدث قبل بدء الحمل . تماما أعتقد ان هذا ما يحزننى . مشكلتى ان الفتية الذين يستظرفوننى لا يحسنون معاملتى . أكتب مقالا الآن أقول فيه : « أنا لا أطالب بعودة المرأة الى المنزل ... ولكنى أطالب بعودتها الى الانسانية .. الخ » أنا مستاءة بشدة من حالة المرأة فى العالم الآن ، مستاءة من العبودية الشديدة الغارقة فيها لأذنيها ، متمثلة بالذات فى المرأة الغربية ، مستاءة من العلاقة الثلجية التى تربطها بأطفالها وعالمها البيتى .

***

* نيويورك ١٧ أغسطس ١٩٦٥ .

عيد ميلادى . وحدى بالغرفة . اجازة قصيرة من الأحاديث التى لا تخطر لى على بال . أحاديث المآسى الصغيرة كما

أسميها .

آه يا آلام كتفى واختنـــاق كذبى ــ أهيىء نفسى لوليمة سرحان .

ــ أحب أن أجلس وأمد ساقى وأسرح فى مناقشة قضية ما أو تخطيط ما سأفعله يوم الأربعاء ١٧ أغسطس سنة ١٩٩٠ عيد ميلادى الـ ٥٣ وماذا سيقول لى جعفر ابنى الذى سيكون . أشياء هامة كهذه أرتب لها ساعة أو ساعات هنيئة لا يفهمها الآخرون ــ الآخـــرون هم شريكات غرفتى المتتاليـــات ــ « هيا نفعل شيئا » . لماذا الاصرار على ربط زوارقهن بزورقى ؟ لقد تعمدت دائما أن يظل زورقى حرا يتبع فقط كل ما يخطر له بلا عبء التفسير والاجابة على أسئلة والسبـــاق والنزهات الجماعية . فالواقع أن ليس لدى تفسير لشىء ، واجاباتى لم تقنع أحدا منذ زمن طويل ، وكان لا بد أن أكذب دائما حتى تتلاءم اجاباتى مع المعقـــول . والســـباق لم يكن فى حوزتى تكاليفه . أنا متكبرة لأنى أود أن أكون فاضـــلة . معذرة . والنزهات الجماعية . لا بأس . تأتون معى ؟ أين ؟ تتشعلق فى خيوط القمر ونركل بأقدامنا رؤوس اللفت ؟ اقتراح وجيـــه كهذا لا يستحق السخرية . آتى معكم ؟ نلعب لعبة الحروف المتقطعة ؟ نقطف الزهور ، الزهور ؟ نشاهد سويا ــ ونعود .

لم تشاهدوا شيئا مما رأيته . لم أكن معكم فى الواقع ولم تلحظوا غيابى . لن تلحظوه أبدا . لن تلحظوا شيئا لأنكم عقلاء . عوقالاءه : تعرفون جيدا شكل أصابع أقدامكم ــ وان كنتم لا تكترثون دائما بقص أظافرها : « لا تجلسى وحــدك » . أستحق هذه الاهانات لأنى أتقنت كذبى من باب الشفقة . ماذا تفعلين يا شريكة غرفتى لو أطلقت جنونى وعرفت اننى أعيش مع ملايين من كائنات أحلامى ؟ واننى أحبهم وأتمنى لحظــة خلوتى معهم وأريد أن أتحدث مع صديقى . انت طيبة جدا يا شريكة غرفتى وتمدحيننى دائما بأشياء أنفيهــا عن نفسى . وتعتذرين عن أشياء أتعمدها وتبررين مواقف صدقى بكذبات . أفسدت خطتى أمس وقمت بترجمتى أمام ذلك البشر الغريب ترجمة أفزعتنى تماما . لماذا لا تكرهيننى حتى تحررين عنقى من طيبتك وحنانك ؟ لو كرهتى ــ سأحبك جدا !

خطابك أيقظنى من حلم مزعج قتلت فيه قتيــلا لم أعرف كيف أخفيه . لعل السبب هو الليلة التعسة التى قضيتها أمس . كنت مدعوة الى العشاء رغم أنفى الذى خنقته رائحة القمامة . وللأسف القمامة كلها محلية كانت : مصريين وزوجات أمريكيات ومحاولة مستمرة غليظــة للموازنة بين الوطنيــة والتخاذل . أحسست اننى فى مسرح للعرائس المشدودة بالخيوط الخفية .

تذكرهم يشعرنى بالاعياء . لو أملك أن أظل هنا دائما وحدى . أحب غرفتى وعالم الفانتــزى الذى أشــكله بقلبى وعقلى . أضع الآن السيمفونية السادسة لبيتهوفن . تحبهــا ؟ بها جزء أتذكر فيه روح سيد درويش .

جاء دورى الآن . بماذا أؤمن ؟

أنا لا أستطيع أن أفرق بين القلب والعقل . ربما كان هناك فارق ولكنه ليس عندى ولم أصادفه . عقلى تزحمه الأحلام والخيالات البرية وقلبى متفرج مندمج جدا يمتعــه حقا كل ما يشاهده مختلفا يدور بمسرح عقلى ، وأحيانا يقوم بتصوير رقصة وأداء دور ـــ ولكنه عائم مع عقلى ما يلبث أن يخرج من رواية محزنة حتى ينفجر بالضحك .

أكثر شىء يضحكنى هو القصص المحزن . فالنــاس تحكى الحزن بدهشـــة كأنه مفــاجأة وآخرون يهربون منه خوفا ، وصديقتك تحضنه بملء صدرها ، فهو مهرجها الحبيب . وهذه الأيام أنا حزينة . حزينة بحرية وأشعر انى ألتهم حلوى منعتنى عنها طويلا . الحزن آدميتى وحاسة ادراكى للأشيــاء حولى . حزنى خاص . خاص جدا ولكنه ليس ركيكا ، أو حقيرا أو سخيفا . هل تعرف ما الذى يهيج حزنى هذه الأيام ، ادراكى ان تعليم المرأة لم يحولها كما يجب الى انســان أقــدر على

الفهم ـ مسخها بدلا الى غول يلتهم أطفاله ولم يكترث حتى أن يمسح فمه المدهون بالدم . المرأة تعلمت ولم تتثقف ولم تتحضر . أضاف التعليم اليها سمكا عطل حساسيتها الطبيعية وضلل العلاقة الانسانية بينها وبين طفلها ـ المرأة ـ متى تدرك ؟ ثورتى بها تفصيلات أخرى لا أشعر بنشاط يمكننى من رسمها بدقة الآن . سأقولها غدا .

***

* نيويورك ٢٥ أغسطس ١٩٦٥ .

اليوم أشعر بثقـل فى محجر عينى . الأشيـاء التى أراها أشكالها صلدة وحروفها مدببة . قلبى ثقيل بما سمعته أمس عن بلادى . أكرر فى حلقى قصيدة صلاح عبد الصبور الأخيرة « مذكرات الرجل المجهول »

هذا يوم خوان
سألونا قبل الصبح عن الحق الضائع
فنكرناه

الضحالة تزداد . والزيف يعم . والصدق هتك عرضه ومستلق بعرض الطريق المترب . البرجوازية المنحطة مختفية فى أثواب سرقتها . جسد القتيل يشير الى الثيـاب المنزوعة عنه قسرا . الكلمات مصبوغة . ورخص اللون يفضحها . والحماس ملفق

يفوح منه رائحة الغرض . التجارة على أشـدها والرصيـد منهوب .

اللعنة على من يقول دون أن يسمع .

اللعنة على من يشترى دون أن يقدر الثمن .

اللعنة على من يسمع ولا يسمع .

اللعنة على من اتسعت حدقته . عرف الثمن . عرف الثمن لم يستره عنه أحد ، واشترى . المبلغ لا يملكه جيبه . اللعنة على من يشترى اللاشيء باهظ الثمن . اللعنة على من يدعى النبوة ويقود المؤمن الى الضلال .

***

* نيويورك سبتمبر ١٩٦٥ .

عزيزى : عند جامعة نيويورك حديقة « واشنطن سكوير » . حبيبتى أحلى من كل ما رأيته وحكاه تلامذة السربون عنحديقة لوكسمبرج . ليست واسعة ، وليست غنية بالقطع الفنيـة ، وليست مرشقة بتماثيـل الغرام ، ولكنها مليئـة بالنبض وبى وسبتمبر الذى أحبه .

درت حول نفسى وأنا أعبر الى النافورة فى منتصف الميدان أمرغ وجهى فى فيضان الشمس وأبتلع نسمات هواء ما قبـل الظهيرة ، ساقعة . دائما أحب ملمس الهواء الساقع وأنا تحت

الشمس . متعة التهام الايس كريم مع القهوة الساخنة . وهكذا كانت متعتى وأنا ذاهبة لانهاء قصة حياتى مع امتحانات الجامعة . أنهيتها . وأخيرا تخرجت الأستاذة صافى ناز (شهادة درجة الأستاذية فى المسرح سأرسلها هدية لأمى فهى لها .. أما أنا بأى شيء تهمنى هذه الورقة) . خرجت من المبنى أحجل على ساق واحدة أداعب الحمام المتكثف فوق ممرات الحديقة . لم يلتفت الى لاعبو الشطرنج ولم ينشغل بى منزهو الكلاب ومنزهو الصديقات . ولم ألتفت أنا الا الى الورق الأصفر والأحمر المجعد الدائخ على الأرض . وأنصت برهة الى صوته المبحوح والهواء يجرجره وراءه دوائر شقية حول جذوع الشجر . حلو الخريف . حلوة هذه القرية جرينتش فيلاج ـ تعرف انها موطنى منذ ثبتت رحالى من شيكاجو الى نيويورك ـ لولا انه ليس من عادتى أن أفتقد لافتقدتها كثيرا عندما أترك . تسلقت داخل النافورة الجافة وأغمضت عينى ورأسى يستريح على حافة سلمه .

هل جربت أن تغمض عينيك وترقب الشمس من خلال الستار المسدل ؟ ألف بلورة لون رأيت . شكلت منها عدة خيالات أبسمتنى .

***

* نيويورك ٢٠ سبتمبر ١٩٦٥ .

صديقى :

أرسلت اليوم كتابا لك . كتاب الشاعر الروسى الحديث ايفتوشنكو . عن حياته . الواقع انه ليس تماما ترجمة حياته ولكنه أضواء على ظروف مولده كشاعر وكرجل بصير . وقد وعدتك منذ زمن أن أرسل اليك ذلك الكتاب ولكنى كنت مفلسة وأخيرا وجدته بسعر مخفض جدا ، دولار واحد ـ ثمنه الأصلى ٣ر٩٥ دولار ـ فاشتريته فى الحال . أنا قرأته منذ عامين وأمتعنى تماما . وكعادتى وجدت شبها كبيرا بين ثورة ايفتوشنكو وثورتى الأخلاقية . أعتقد اننى «موراليست» طبعا مع تحفظاتى الخاصة بتعريفى لما هو أخلاقى وغير أخلاقى . أعتقد ان كلنا حاليا من مصلحتنا قراءة هذا الكتاب . انه يعبر ويترجم أشياء من المتوقع جدا أن تحدث لنا ونصادفها ان لم تكن قد حدثت وصادفناها بالفعل . انه يعبر عن مأساة المؤمن الحقيقى عندما يجد دينه ألعوبة فى يد تجار يستجدون الرزق به . انه يعبر عن ثورة المؤمن المخلص على المرتزق . أيا كان دين المؤمن فان ثورة كل المؤمنين واحدة ـ كالعادة . لم ينته كلامى فى هذا الموضوع ، ولكن جسمى يرجف من الغضب الآن اثر مكالمة تليفونية كنت أناقش فيها مأساة اعلامنا العربى

هنا . سأناقش الموضوع وأنا أكثر هدوءا .

***

* نيويورك ٣٠ سبتمبر ١٩٦٥ .

أنا لا أعاتبك يا صديقى . أنا لا أملك هذا الترف . لا أملك أن أعاتب أحــدا ، وهنــاك شيء آخر أقسى ، لا أملك أن أندم . لذلك فأنا متفرغة تماما لمصــارعة القوى التجــريدية ، القوى التى لم يثر عليها أحد على مر التاريخ البشرى الا الذين مثلى : المبحرون بلا سفن ــ لأننا لا نملك أوراقا خاصة ولم نستطع الاجابة على الأسئلة وتركنا الفراغات كما هى . أنت ترفض كلامى هذا لأنك لا تعتقد اننى أتكلم بصدق . تتصور انى ألبس ثيابا ليست لى ، وشكوكك هذه لا تغضبنى ، لأنها شفقة . أنت تشفق أن يكون كلامى حقا ، أن يكون عذابى فعلا ، ولكنى مبتلية يا صديقى بلاء أصاب جلدى فتساقط كله ولا يمكننى الا أن أحس بكل‌شيء . احساس‌جاد وعبء . بكيت بحرقة اليوم لسببين : قرأت كتابا عن « تجارة الرقيق » التى ما زالت تمارس بكل فواحشها . الكتاب ليس ملفقا . هــذه الحقيقة حكت قرحتى . صحيح ان الرقيق يملأ الدنيا لو عممنا مفهومه وقلنا ان الحياة الصناعية استعبــدت البشر ، ولــكن حقيقة انه لا يزال هناك « انسان » يشترى ويبــاع لحما ،

هذا شيء .

وقرأت أيضا مقالا اسمه « عالم عبد الله سـليم » لاجيء فلسطيني ، قتلني . بكائي لم يكن من أجل الحقائق التي ذكرتها المقالة فهي مكتوبة في مجلة صهيونية مليئة بالأكاذيب ولـكن ذكريات الوضع كله وملابسـاته والدماء البـاردة التي تعالج المشكلة كلها .. كلها .. فنقت قلبي من البكاء الغاضب .

يا صديقي :

أود أن ألد ألف رجل يقتلون جميعا هناك . الحل الوحيد هو الحرب ــ حرب صريحة مباشرة ولنمت جميعا ــ هذه أعظم هدية نقدمها للحياة .

تعبت ! .. ولكني لم أتتـه فأنا متمتعـة بتلكؤي واكمـال سيمفونيات بتهوفن معك .

أمس ذهبت الى مسرحية «انكل فانيا» لتشيكوف في مسرح الجامعة . مسكين تشيكوف قتلته الأصوات المسطحة التي كانت تقرأ سطوره . لم يكن بينهم واحد استطاع أن يعكس الاشعاع الداخلي الذي يضيء عادة أعمال تشيـكوف . لا عذر انهم تلامذة فكلهم طلبة دراسات عليا في المسرح . المسرحيـة أصلا على كل حال ليست من الأعمال التي تشدني ــ خرجت منهـا استنشق هواء ما بعـد المطر عابرة الحديقـة الخالية وأراقص

خطواتى مع المظـلة وفكرت بعنـاية وقلت : لابد أن يكون للانسان شعلة داخلية دائمة الاتقاد ينبع منها كل مرحه وبهجته وسعادته وحزنه العظيـم . اكتفاء ذاتى يفى كل حاجاته . أنا لا أشعر بفجيعة انسان يعيش حياته بلا بهجة لأنه فقـد منبع البهجة : انسانا آخر . لا شفقة لدى للمعذبين فى الحب ـ الا اذا كان عذابهم جزءا من كيان بهجتهم « مثلى » ـ ان الحب حالة تخيل وابداع نخترعها فى انسان خارجى يتلاءم مع ذوقنا الفنى ـ واستمرار الحب متعلق بقدرة استمرار ابداعنا فى طمر المعالم الحقيقية لهذا الانسان الخارجى . وغياب هذا الانسان أو اختفاؤه أو عدم تعاونه لا يجب أن يكون بترا نهائيا للمرح والبهجة فهناك بعد « الشعلة الداخلية » قادرة على اشـعال ألف خيال وخيال ـ ولذلك فأنا لم أفهم عذاب « انكل فانيا » ولم أنفعل بآلام سونيا ـ تقول سونيا : « اعلم يا انكل فانيا انك لم تعرف البهجة فى حياتك » التعيس أى شىء اذن عرف ؟ حزنه ليس عظيما ـ لو كان له حزن عظيـم لانتشت نفسـه بالبهجة والمرح .

***

* نيويورك أكتوبر ١٩٦٥ .

صاحبى :

أكتب الآن من ممر مزدحم ينتهى بباب يدور ، صحفيون صحفيون كثيرون وناس . منذ ساعة انتهى « البابا » من القاء خطابه التاريخى أمام الجمعية العمومية . رسالته عن السلام الى الأمم المتحدة . منذ وصل فى الصباح الى مطار كنيدى ونيويورك فى حالة طوارئ . شارع واحد مع تقاطع شارع ٤٥ معبأ بالبشر . داخل المكان المخصص للمراسلين الأجانب جلست أرقب تفاصيل الحدث على شاشة تليفزيون مكبر ، قاعة الجمعية العمومية ازدحامها يعرقل العمل الصحفى . انتهى العرض التليفزيونى ووقف المشرف على الاعداد التليفزيونى والاذاعى بالأمم المتحدة وطلب منا أن نلزم أماكننا ، البابا قادم . ووقفنا جميعا . كل السيدات وأنا نلبس ثيابا سوداء ، فستانا أسود وعلى رأسى شال لونه أغطيه به ، هكذا قالت موظفة البروتوكول . دخل البابا حقيقة ولم أشعر كما شعر الكاثوليك ، ولكن شعر رأسى وقف رغما عنى . وأحسست بشحنة بكاء : رفع يديه وركز نظره علينا . برجاء نظر الينا ونادى : « رجال الصحافة يا رجال الصحافة .. » شعرت بمسئوليتى الشخصية تتضاعف : من .. من يريد الحرب أيها المقدس ؟ وخرجت الى الممر المزدحم الممتد أمام السلم المتحرك الموصل الى الباب الخارجى ، وفكرت انها ممتعة وقفتى هذه ، رؤية كل الثياب السوداء وربطات

العنق المماثلة .

***

* نيويورك نوفمبر ١٩٦٥ .

تمتعت جدا وأنا أرسمك ، شريكة غرفتى كادت تصاب بالصرع من الحال التى آلت اليها الحجرة فى لحظة خلقى الفنى !

من الذى أعاد سيرة ايونيسكو وبيكيت . انت تعرف اننى لا أتعب أبدا من الحديث عنهما وعن فنهما لأنه بمثابة حديث عن نفسى . لو تركت نفسك لفكرك التلقائى وحديثك المنساب وأنت نائم على ظهرك ويداك على صدرك لوجدت أنك أقدر وأولى الناس جميعا بفهم « كراسى » أونيسكو ودرسه والاحساس بوهم « جودو » الذى لم يحضر أبدا ــ وأقول لك يا صديقى انك ظلمت نفسك بجملتك عن المنطق .. منطق ؟ يعنى ايه منطق ؟ فأنا لا أعرفه ولم يصادفنى أبدا . ليس لدى سوى بصيرتى على معقولية الخيالات والأحلام فقط ، هذا هو المنطق الوحيد الذى أعقله : منطق الشمس التى سرقت مرة منها جمرة ولسعت يدى .

* فى نيويورك الآن الصحفى اللامع البراق وسيلهث حوله السلك الديبلوماسى حفاوة واكراما ، لما يملكه من سطوة قلم وتدجيل وسيبنى كل الأوثان التى تجاهلتها تماما طيلة اقامتى

هنا : سيحكى عن السيدات الخاملات كيف أوقفن نيويورك على قدم فى خدمة العروبة ورفع شأن الوطن و « ستبريش » كل دمية خزف منهن رموشها الصناعية حتى يحكى كيف انهن بهرن المجتمع الامريكى بأناقتهن التى تفوق أناقة جاكلين كندى وان هذا دعاية طيبة للمرأة العربيـة ، ولن يحكى كيف انهن أرجوزات يهلكن من الضحك لأن كل العالم يعرف ان جيبنـا مخروق واننا ليس بحوزتنا هـذا الترف من خزائن شـارع ماديسون والشارع الخامس . هل ترى كيف أتعذب ؟ يخطر لى الآن رأى تبلور لدى أخيرا بتتبعى لخطوط الموضـة فى أوربا وأمريكا . أنا أعتقد ان خطوط الموضة هذه تحمل فى طيـاتها شكلا من أشكال التخطيط السياسى لمجتمع الدول الرأسمالية ـ هذا الشكل تبرزه الدعاية بكل ثقلها فى أجمـل اطـار ـ يحتوى على تحبيذ اتجاه غريب لمحاولة « تحنين » المرأة الى الرجوع الى دورها القديم كمحظية أو مرفهة للرجل ـ فبعد أن ساد الاتجاه ـ الذى فرضته ظروف الحرب العالمية فى تحبيـذ الشـكل الجاد العملى البسيط المختصر الاقتصادى لما ترتديه المرأة ، نجد دور الأزياء تتنافس فى شد اتجاه المرأة الى الزخرفة والدانتيل وأثواب السهرة الطويلة المخملية المستوحاة كلها من أزياء عصر القيصرية الروسية أو ما قبل الحرب الأهلية الامريكية

أو عصر بلاط ماری انطوانيت ـ وتحت ضغط الاغراء الاعلانى وضغط ما هو مطروح فى السوق ، لم تجد المرأة ـ سواء باختيارها أو بدونه ـ سوى أن تنظر فى المرآة لتجد نفسها بأسلوب تصفيف شعرها الى زينة وجهها الى ما ترتديه فىالمنزل أو فى الخارج الى ما تلقنته من نصائح المجلات النسائية فىكيفية كسب الرجل ـ تجد نفسها بهيئتها هذه لا تصلح لأى دور سوى دور السميرة والأنيسة للرجل ـ ومن المعروف ان ما يرتديه الانسان ينعكس على سلوكه ويكيف طريقة تفكيره ـ ولقد لمست طيلة احتكاكى مع المرأة الامريكية اتجاه ميلها الى ترك وظيفتها العملية والتفرغ الى تنفيذ نصائح المجلات النسائية فى كسب قلب الرجل ـ الخطورة التى كنت أحسها فى هذا الاتجاه انه اتجاه لا يعمل فى جبهته فقط ، لا يعمل فى المجتمع الرأسمالى فقط ـ لكنه موجه باستمرار وبخبث للغزو وللتسلل والاعتناق فى مجتمعات البلاد الاشتراكية والمنطلقة لشحذ طاقتها من أجل قضاياها التحررية الملحة ، والتى تؤمن بضرورة تأكيد الاتجاه ، بأن المرأة فى المجتمع الاشتراكى « انسان » لها قيمتها فيما تقدمه من عمل وكفاءة ، وليست محظية قيمتها فيما تنجح فيه من مسامرة للرجل .

ترى هل سامرتك جيدا بهذا الحديث ؟

* نيويورك ١٣ ديسمبر ١٩٦٥ .

تتهمنى بالاقليمية والعزلة عن أدب العالم العربى المعاصر لأننى لم أقرأ للأدباء العرب الذين ذكرت أسماءهم : أعترف بالعزلة وأنكر الاقليمية . ستجعلنى أعترف لك بشيء أخفيتـه عنك ، وهو اننى يوم اعلان الوحدة عام ١٩٥٨ ، كنت أسير فى الشارع أبكى بحسرة شديدة على اختفاء اسم «مصر» وتلقيبها «اقليم» وكتبت فى مذكراتى أقول اننى تعسة جدا ، ولم يستطع أحـد أن يقنعنى بحقيقة عروبتى الا غربتى وتفتت غرورى فى الولايات المتحدة ــ وحادثة سبتمبر ١٩٦١ . حادثة ١٩٦١ ، والفرحة التى غمرت الوجوه هنـا فى أمريكا ــ ولدتنى ودقت رأسى بالحائط فأفقت وفتحت عينى بسكين . وكان يجب أن يحدث هذا لأدرك ، ومنذ أن أدركت وأنا متشبثة بادراكى ومعرفتى ان النقاش الجدلى لا يمكن أن يفيد . فالانسان لا يفهم حقا الا اذا هده اعصار وطحنه عذاب وذاق شـجرة الزقوم . ولقـد ذقتها والحمـد لله ، ولعـل هـذا ما يسـاوى كل رحلتى ، فرحلتى لم أعن بها الفسحة أو الفرجـة على المروج والجبـال والأنهار وجمـع التحف والحصى الملـون وتأليف كتاب يفوز بجائزة أدب الرحلات ، ولكننى قلت : سأكون سعيدة لو عرفت الجوع والمذلة والاهمال وطهرت نفسى من الشبع والغرور وترف

ان تكون مدثرا بمن يعرفونك : أن أعرف كيف لايموت قلبى .

اذن فأنا ليس بحوزتى أن أكون اقليمية ، ومع ذلك فلا أستطيع أن أنكر قولك اننى أعيش فى عزلة غريبة عن أدب العالم العربى المعاصر ، هذا شيء واحد ــ على الأقل ــ أعرفه جيدا . أنا فعلا لم أقرأ اشاكر مصطفى والعجيلى والارناؤوط والعجلانى ــ وما اعترضت عليه ليس كلامك الجميل عنهم ولكن جملتك ان العجيلى هو الكاتب العربى « الوحيد » الذى يكتب وفق منهج علمى . أنا اعترضت على « الوحيد » ولم أعترض عليه لأنى لا أعرفه . ولكنى أعرف ان هناك غيره يكتب وفق منهج .

هل تفهمنى الآن ؟ أنا لا أعارضك لكى أثبت معرفتى ، ولكنى أعارضك استنجادا بك أن تعرفنى ــ ألا تلحظ ؟ وما زلت لا أفهم فائدة تحديد شخصية الأدب العربى المعاصر بالاقليم الذى ينبع منه ــ لقد كان الأدب دائما فى تاريخنا أدبا عربيا ــ وكان الشاعر والكاتب دائما شاعرا وكاتبا عربيا ــ أو هل تريد أن تقول عن المتنبى الشاعر لا أدرى العراقى أم السورى ؟ حتى الشيء الذى هرب من تقسيم الأتراك والحلفاء والأمم المتحدة وغبائى ، تريد أن تقسمه ؟

يا الهى : كم أنت اقليمى !

* نيويورك يناير ١٩٦٦ .

كل صباح أتطلع الى الصحف وأتساءل : أين الشعب الامريكى؟ أين هو وحكومته تروح وتجىء فى العالم على هواها تقتل من تشاء وتعتدى على من تشاء متباهية بغشامة قوتها دون خجل أو مداراة . اننى لا أستطيع أن أعفى الشعب الامريكى من مسئولية تغاضيه عن واقع سياسة بلاده المدمرة . أنا أؤمن ان فى مقدرة كل شـعب ـ اذا أراد ـ أن يوقف المجازر التى ترتكبها حكومته باسمه ، خاصة اذا كان شعبا يدعى انه يعيش فى بحبوحة نظام ديمقراطى حر . فأين هو الشعب الامريكى ؟ لماذا هو هكذا متخاذل متقاعد لا حول ولا قوة له أمام جرائم حكومته فى فيتنـام ، وما له هكذا مطيـة سـهلة لأكاذيب الصهيونية وتواطؤها مع حكوماته لاطعامه تفاصيل مختلقة عن الوضع فى الشرق الأوسط ، ما له هكذا صامتا يرقب فى بلاهة تهريب ملايين الملايين من دولاراته المستحقة للضرائب لتذهب بجملتها الى بلد واحد على الخصوص هو اسرائيل ؟

هل الشعب الامريكى شعب عناصره فاسدة كلها ؟

لا يمكن بالطبع . هناك الألوف التى تتحمـل الاضطهـاد والاهانة لتنظيم مسيرات السلام احتجاجا على حرب فيتنام ، وسرت معهم نهتف : « اوقفوا الحرب فى فيتنام .. أعيدوا القوات

الى البلاد » : لقد أحببت هــذه العناصر وتفاءلت بها وكنت أشعر أنهم باستعدادهم لفهم قضية تحررية مثل قضية فيتنام ، يمكنهم أيضا أن يتفهموا قضيتنا العربية ويناصرونا ضد مساندة حكوماتهم للعدوان الصــهيونى الرجعى فى المنطقــة ـ ولكن تفاؤلى كان لا يلبث أن يطغى عليه التشاؤم كلما تكشف لى كيف ان هذه العناصر ليست سوى أقلية طيبة واعية، وسط المجموع المستسلم لخدر شيء اسمه « الطريقة الامريكية فى الحياة » .
الدورة هــكذا : أمريكا بلد يعتمــــد على الاســتهلاك .

رأس مال يدير مصانع تنتج وتتنافس فى انتاج ماله وما ليس له ضرورة ـ ومع ذلك فكل شيء لابد له من مستهلك . اذا لم يكن هناك مستهلك ، فلا بد من خلق هذا المستهلك . أجهزة دعاية ضخمة وتفنن بارع فى الاعلان وتنوع فى الأساليب ، من الأسلوب النفسى ، الى الأسلوب الحسى الى الأسلوب العاطفى الى ما يبدو انه أسلوب عقلى ... الخ ، محاصرة تامة شــاملة محبوكة من كل اتجاه ، محاصرة أصبحت من جودة احكامها تبدو وكأنها الشكل الطبيعى للحياة العادية .

كل بوق دعاية يرسم بما يفيده تصوره عن «الطريقة الامريكية فى الحياة » . أن يكون لك بيت جميل كبير خاص . ليس معك نقود ؟ لا يهم . هناك من يساعدك لتحقيق هذا الحلم ، ادفع

هذه المقدمة البسيطة ثم هذه الأقساط الطويلة الأمد . كذلك لابد أن تكون لك عربة ، بل عربتان ، بل ثلاث . وهذا المطبخ وهذا الحمام الخيالى ، وهذا .. وهذا .. وهذا كله بالأقساط ، ويجلس الفرد الامريكى كل أول شـــهر غارقا فيما حوله من مشهيات الحياة الناعمة المخدرة وأمامه عشرات من فواتير الدين — عليه أن يفى بها — ومهما بلغ دخله فهو واقع فى مصيدة أن يكون دائما مستهلكا ، أن يكون دائما مربوطا من عنقه بالدين ، هدفه الدائم العمل المتواصل لزيادة دخـله ووراءه الرأسمالية الكبرى هدفها الدائم امتصاص هذا الدخل وابقاؤه فى عجلتها مطحونا لاهثا حتى الموت .

ومن منشأ هذه الدوامة التى خلقتها طبيعة النظام الرأسمالى الامريكى تتفرع نتائجها واشعاعاتها الخطيرة المدمرة التى نرى مظاهرها فيما نراه من ضياع أو انسحاق واتساع موجة ادمان المخدرات والخمر والعلاقات الشاذة ، وجرائم القتل والانتهاك . كل هذا من شأنه أن يستوعب الفائض من طاقة واهتمام الفرد الامريكى لشغله عن القيام بدوره كشعب متحضر له مسئولية هامة ، أن يرفع صوته الانسانى أمام الشكل اللا انسانى الذى ألفه العالم لوجه أمريكا القبيح .

كيف اذن بوسعنا أن نتوقع من الشعب الامريكى أن يقف

معنا فاهما يقظا وهو بعد لم يستطع أن يتنبه الى حقيقته كضحية من ضحايا الجهاز الشرس الذى سلبه انسانيته وحوله الى تماثيل حجرية فى مدينة مسحورة .

***

* نيويورك فبراير ١٩٦٦ .

مشتاقة للقاهرة .

المكان الذى أشتاق اليه فعلا هو « الحسين » ، قهوة الفيشاوى ومشوارى بعدها الى العتبة حتى ألحق هواء ليل القاهرة النظيف وآخر بائع لأطواق الياسمين .

الساعة الآن الثانية صباحا . سأكتب كل ما يدور بذهنى الآن وأفكر بعدها فى لياقة ارسال ما كتبته أو عدم لياقته ، المهم أن أقول ما بداخلى لأننى مثقلة به وأقوله لك لأن عقدة لسانى لا تفك الا عندما تعرف انها تتحدث اليك . أنا لست سيلا كما قلت لى مرة . أنا بطيئة جدا ولسانى ثقيل وأكتب بعنت وجهد ، وأكثر من ذلك أنا لا أحب الكتابة ، ولا أحمل للحروف أى قداسة أو تعبد . الصمت هو وثنى الأكبر ، وياليتنى أستطيعه . ينمو بداخلى مرض مستفحل ، حب العزلة . الراحة تملؤنى فقط عندما أكون وحدى مع كائنات خيالاتى . كلما هبت على لفحة هواء خارجية تسلخ جلدى وسالت دمائى .

أحيانا أتساءل : هل كان يمكن أن تولد صداقتنا هذه لو لم تكن فرصة حوارى معك على الورق ؟ هل كان من الممكن أن تولد صداقتى معك لو اننى كنت أعرفك ؟ هل كان يمكن أن أمتلىء بالألفة هكذا لو أنك كنت تسكن جارى هنا بالمدينة ؟ هل كنت أستطيع أن أدير رقمك وأتحدث اليك الساعة الثانية والنصف صباحا كما طرأ لى أن أتحدث الآن ؟ لا أعتقد . كنت ولا بد سأصطدم بجدارك الخارجى ، الانسان أطيب وأرق كثيرا من مغلفه المعبأ فيه .

أمس ــ اعنى منذ ساعات ــ كنت أزور أصدقاء لى أحبهم ولكنى مع ذلك دائما أشعر بينهم بالاحباط ، بمراقبة حوارى معهم عرفت اننى لا أملك أن أنهى جملة أبدا . صديق منهم يملك قدرة خارقة على صب آرائه الملتزمة فى قالب من التحرر والمرونة . حاولت أن أخترق حصارهم بالقاء بعض الشعر ، هاجموا أسلوبى فى الالقاء ــ بينى وبينك ساءنى الهجوم ــ فأنا أحب القائى للشعر : حاولت أن أقول ان هناك دائما مدرسة ذاتية ومدرسة موضوعية فى الالقاء ، واننى أنضم الى مدرسة الذات ، ربما كان هذا خطأ أو مرض أو عقدة ، ولكن هذا هو الحاصل . وقال صديقى الملتزم الذى يستفزنى دائما : « بل هناك مدرسة واحدة » . رأيه ان القاء الشعر

لابد أن يكون منغما مع أوزان وقافية القصيدة ، وان القاء ت.س. اليوت مثال للالقاء الجيد ـ وانه ضد فرقة مدرسة التمثيل التى تلقى الشعر كأنه نثر وانه لا بد من نقل تجربة الشاعر لا تجربة القارىء ـ وقلت ان ت.س. اليوت أساء الى شعره عندما سجله بالقائه على اسطوانة ـ وان العمل الفنى ليس سطحا واحدا محددا ولكنه مثل قطعة الماس تحت الضوء لها ألف اشعاع يعكس ألف لون والقارىء يلتقط الاشعاع الذى يستطيع أن يترجم احساسا لديه يتراسل معه . هناك قصائد أحس انى ألبسها وعندما ألقيها كأنها كلماتى أكون قد نجحت فى نقل تجربة الفنان لا فى خيانته أو اقحام نفسى عليه .

نهايته . لم أقل لك كل ما يدور بذهنى على أية حال ، اذا كنت أعبد الصمت فلا بأس من بدء الصلاة الآن . أود جدا لو أبرق لبهاء حالا ليقرضنى تذكرة عودة . أشعر بكسل مفاجىء يقعدنى عن اكمال سفرى الى أمريكا الجنوبية واستراليا . أريد أن أعود الى قهوة الفيشاوى وحلقات جدلى مع أصدقاء جدد لم أعرفهم بعد . أصدقاء لا يقعدهم شىء عن قول كل خاطر أخرق . مشتاقة للثورة والزلازل والاحتجاج والغضب .

***

* نيويورك مارس ١٩٦٦ .

هذا الخطاب لن أرسله لك ـ صحوت اليوم على حقيقة ان خوفى من غضبك أصبح يسلبنى جزءا كبيرا من عفويتى وصدقى .

خطاباتك البطيئـة أخيرا حررتنى من الخوف ، كسرت عادة توقعى لخطاب منك . تدربت من جديد على نظامى القديم ، ألا أتوقع ، ألا أستند ، ألا أتعلق (هل تذكر نغمتى هـذه فى خطاباتى الأولى لك ؟ هل هذه النغمة مصدات رياح أحتمى وراءها ؟ فلتـكن) . خلاصـنا من الخوف والفزع سـبيله الوحيد أن نضع رأسنا فى فم الغول . لأقل اذن أنك لم تعد هناك . انك لم تكن أبدا هناك . صديقى ؟ صاحبى ؟ هل أعنى أنت ؟ أم اعنى هذا الذى أبحث عنه أبدا وأسـميه أحيـانا أسـماء مختلفة ــ قد تكون أنت أو غيرك أو غيره ، ولكن صداقتى لك تنز بعد فى قلبى ــ عامان ــ قلت لك فيهما عن نفسى أكثر مما كنت أتصور انه هناك . نعم أفتقدك جدا ــ ولكنى سعيدة . أحس بتطهر . هذه الراحة مع الألم العاصر .

جمعت أشياءك وكفنتها بغلاف مذهب .

تذكرت تعبيرك : « بكيت كالأطفال فى سريرى » .

هكذا فعلت ليلة أمس .

بكيت فى سريرى ورأسى فى الوسادة .

فى الحائط .
تخيلتك تصالحنى .
لكننى أزحتك
وقلت بكل عنادى :
اننى أحبك
رغم أنف المنطق
والمذهب العقلانى
ورغمك أنت أيضا
رغم أصدقائنا الذين حولك الآن ربما وأكرههم جميعا بلاتردد .
فى يدى حربة .
وألبس جلد نمرة .
وأقتلهم بدائرة واحدة .

***

قرن الآيات المعكوسة .
فرسى أبيض .
الفارس كان يخطف فى الماضى أميراته .
تراثنا النسائى .
ألم تخطف فارسة أبدا أميرا ؟
الكسيحات : لا .

لم يتركن لى قط تراثا مفيدا .

* * *

موزع البريد سألنى أمس
عن خطاباتك .
قلت : اننى أغضبتها .
لاطف ذقنى قائلا :
« أنت ؟
تغضبين شيئا ؟
لا يمكن ! »
قبلت رأسه وجريت صوب الشارع
كأننى أتيت بشهادة يمكن أن تقنعك .
غريب أنت .
غريب جدا .
كأنك لا أحد .
وصلت نهاية الشارع ولم أجدك .
سألت بواب البناية المجاورة .
هز رأسه وقال :
« لم أر أحدا يمر ! »

* * *

خيالى مريض ؟
هكذا يؤنبنى صديق .
كرهته هذا الصديق .
أكرهه هذا الصديق .
صديق مثقف .
المثقفون أكرههم ،
لأنهم ،
عندما يقرأون الشعر يبكون .
وعندما يغلقون كتاب الشعر :
يواصلون حياتهم ببراعة
منفصلة تماما
عن الشعر وعن دموعهم .

***

لم أفتح كتاب الشعر .
ولم أغلقه .
لأننى : أنا الشعر .
لماذا لا يتقبلنى ناس النهار .
مع أنهم :
يتقبلون القمر .

والشجر .
والأمطار .
وسعالهم المفاجىء .
لماذا يجب أنا أن أكون
« منهجية مقررة » .
لـماذا يجب أنا أن أكون
كما يأمر المثقفون
ـ بيروقراطيو الحب والمشاعر والألم ـ
« متجانسة »
أنا ؟
متجانسة ؟
لـماذا ؟

***

حين تفتحت الوردة الحمراء ، سـقطت . نسيت سـقوطها واندفعت الى خاطر : الزهور دائما هناك . أمعنت النظر هناك . أمعنت . أمعنت . رأيت . انتشيت . سحبت الريش وقلت :
المدينة تدهشها سعادتنا .
كأنها لا تحب .
تخوفت الدهشة .

آه لو لم تلحظنا .
لو ظننت انك لست أنت .
ولو أرحناها بأن كنا وهما .

***

وحدتى لم تفزعنى مثلما تفزعنى أنت الآن .
لو أستطيع أن أجمد فرحتى معك .
لو أستطيع أن أحشو فمى
كلاما غيرك .
لو أستطيع أن أصمتها :
حبيبى . حبيبى . حبيبى

***

ليس أبسط من أن أقول لك حبى
لكن ما أصعب أن تبقى البساطة .
وما أصعب أن يكون ما نقوله
حقا صدقا .
ليس أصعب من أن أحبك :
حبيبى . حبيبى . حبيبى .

فجأة انكشفت زهورا
مورقة بأعلى الشجرة

مرض الاكتئاب تسمية جديدة لعارض قديم .

« مرض الاكتئاب » : التركيبة هكذا تأخذ شكلا شرعيا ويصرح للمريض أن يزاول مواصفات مرضه بحرية كاملة وهذا هو الامتياز الجديد الذى أعطاه لنا هذا النصف الثانى من القرن ، بعدما كانت الحالة فى القديم عليها أن تتهرب أو تتحايل فى الظهور متمحكة فى سبب أو آخر .

الاكتئاب يأتينى دائما متسللا على غرة حين أصحو ذات صباح فأجدنى راغبة عن استقبال اليوم ، متخيلة تصورى عن النكوص يتحقق ، فأتضاءل ، أتضاءل حتى أصير جنينا يتناقص الى أن يعود بذرة تسقط وأختفى . يتملكنى تصور الاختفاء متحقق للحظة الى درجة أن يدهشنى صوتى لو صدر عنى أو

ندت من ذراعى حركة . يعود الى الوعى تدريجيا بأنى ما زلت وعندما أجدنى ما زلت : أعرف ان النكوص لا يعدو سوى تصور لا يمكن أن يتحقق . من ثم تبدأ محاولتى لسحبى خارج البئر كما تكون محاولات سحب سيارة مغروز عجلها فى الرمال .

الموقف المتكرر . احتــواء دون تحديد ثم تأتى الكلمات : تضربنى بأقدامها الصغيرة اللينة : دائما هذا الجنين الذى يضربنى وهو يتقلب داخلى بأقدامه الصغيرة اللينة ، ينبعث الابتسام فى مثل هذه اللحظات : انه الشعور بحوار هــذا المختفى الحاضر كاملا هذه اللحظة غير الموقوتة بالذات .

أمتلىء بالمسرة ورغبة الاجهــاش بالبكاء . ما هــذا ؟ هل تذكرين الخسوف صافى ناز ؟ أذكره : الشـــمس البيضاء . الجير . صمت . خرفشة عربة . صمت . ضجيج صوت أطفال. ينزل طفلان من الاوتوبيس ويسيران . واحد أطول من الآخر. يتسكعان . وجه من خلف عريشة . طفل أفلج يعمل فى ورشة سيارات . بقع هباب سوداء على خديه لكن أســنانه نظيفة وبياض عينيه أزرق . وجه حبيبى يكبر . يقترب . يضحك . يعبس . يتكدر . يغمض فى الشمس . ينظر الى . مصــباح . دفء وردى . أمن مطلق . ردة جفن . تذكرين الخسوف صافى ناز . أذكره : نظرة لئيمة تسقط . انشطار . هاوية . غيــاب

لكل شيء . ليس هناك . فراغ . ليس بين الرجال عوض للوهم . لا يبرحني الوجه . يأتيني بينما أهرب فى عبور مفترق . يخرج من منحنى . يبرز فى تبديل قدم . وأنا أدلف بوابة وأصعد سلمة . يأتينى فى نصف الخطوة . يخرج . يكبر . يقترب ولو صدفة رأيت وجهى منعكسا على زجاج يكون مقفلا باحكام . جيدا نخفى فى الشارع وجهنا ــ خشية لو أخرجت وجهك يأكله الناس ويتخذونك هزوا ــ نحمل وجهنا ، نحمل أنفسنا ، خضرتنا ، كمية الحب يحملها الانسان ولا يدرى أين يلدها . يظل يحوم مثل القطة التى تبحث عن ركن أمين تستقر فيه بهراتها العمياء ، لحظتها حين تكون القطة فى أقصى حالات حنوها وذوبانها لبنا ، سقيا واطعام ، تكون كذلك فى أقصى حالات توترها وتأهبها ضد شراسة العالم الخارجى .

الحب . الوهن : الركن الذى يستطيع الانسان أن يفتح وجهه ، يلقى بضعفه ، يلده ويرضعه دون أن يخدشه أو يركله أحد . حاجة ان يرخى الانسان جانبه الذى يعمل على اعلائه دائما . أن يبوح : يقدر أن يبوح بضعفه كاملا . ومن ذا الذى لا يتمنى أن يعلق على ظهره لافتة : « هش : تناوله بعناية » .

***

زهرة صفراء فاقع لونها جعلتنى ألاحظ لأول مرة ان هناك شجرة أمام البناء تصل فروعها حتى شباكى فى الدور الثالث . هذه الزهور خرجت رغم ان ليس هناك مبرر واحد حولها يشجعها على الخروج أو يبدى اهتماما بخروجها أو عدمه . لكنها هناك ، بكل الثقة التى لا تهتم . وأمس أمامها فى ذلك الشارع المتوحش رمسيس : قتلت عربة بائع خبز على دراجة واستمرت الزهرة ، زهرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين .

فى مسرحية بيترفايس « اضطهاد واغتيال جان بول مارا » ، يأتى قول للمركيز دى صاد : « أنا أكره الطبيعة » . وكان يعنى انه يكره هذه اللامبالاة القاسية للطبيعة . لم أحلل موقفى من الطبيعة بعد . كرهتها فى فترة ما على سبيل العناد لأن شريكة غرفتى كانت تقدسها وكانت تعبر عن حبها بأسلوب ميلودرامى . أتصور اننى لم أهتم بالطبيعة كثيرا منذ ذلك الحين حتى اننى لم ألحظ تلك الشجرة أمام البناء ولم أكترث أن أكتشف أن فرعها يصل شباكى الى أن فرض اللون الأصفر وجوده أمام عينى واثقا بسرور وحبور رغم الخريف ورغم اكتئابى ورغم بائع الخبز المطروح قتيلا .

هذه الزهرة : لا مبالاة من الطبيعة ؟

أم هى : « الشعر » ؟

كان الطفل الرضـــيع يغنى لاهيا بثدى أمه المقتولة بشظية القنبلة .

من العاشرة صباحا الى السادسة بعد الظهر استمر الاشتباك فى السويس .

لابد اذن أن يستمر انبثاق «الشعر» : تستمر طفولة الحياة : عصارة تتغلغل بمنطقها الخاص وضرورتها الخاصة ، تمتد بنبل وحزن واصباح . تصعد بجوف الشجرة . يستطيل معها النفس وتمتد الأذرع .

العصارة حتى لايجففنا الاكتئاب ويشلنا : ننغرز فى الرمال : نتشقق : يقصفنا ويذرينا : تتقوض ونجتث من الجذور : يقينا محال أن يحدث هذا : الطبيعة لا تسمح . الزهور هناك لأنها هناك .

***

عندما كانت نيويورك
مدينة أشباح يضيئها قمر!

. نيويورك : الثلاثاء ٩ نوفمبر ١٩٦٥ . الساعة الكهربائية متجمدة أمام اللحظة التى انطفأ فيها النور . الساعة الخامسة و ٢٧ دقيقة و ٤١ ثانية . انتهيت الآن من الصلاة والحمد والشكر لله ــ فقد كان يمكن أن أكون الآن فى أحد الأنفاق داخل قطار تحت الأرض . كان يمكن أن أكون داخل مصعد بين طابقين . وكان يمكن ألا أجد تلك الشمعة الخضراء الصغيرة التى أكتب على ضوئها الآن ــ موقف رومانتيكى جدا ، ولكننى أريد أن أحدث أحدا ويدفعنى حافز من يكتب وصيته أو يلقى بكلمته الأخيرة الى العالم داخل زجاجة . اننى مدركة تماما لهذه اللحظات الغريبة التى أعاصرها الآن . لعلى مبالغة فى ادراكى هذا ــ ولكن الجو المحيط يشجع على هذه المبالغة . ان انقطاع

النور فى حد ذاته ليس هو المشكلة لكنها المفاجأة ــ والشىء غير المتوقع الذى لم يحدث فى تاريخ المدينة ــ نيويورك بالذات ــ يخالجنى شعوران متعارضان ــ الانسان الخائف والفنان ــ لو سمحت لى ــ ذو الخيال البرى !

عنــدما استطعت أن أهبط الطوابق العشرة من مكتبى الى الطريق ــ وعندما تأكدت اننى نجوت من احتمال أن أكون فى المترو تحت الأرض ــ واننى فى عربة زميل يقودها وســط طرقات بلا اشارات مرور ــ استراح ذعرى وبدأت أســتوعب الصورة الغريبة ــ من يستطيع أن يضع عينيه فى عينى ويقول لى ان « اللامعقول » غير حقيقى ؟

الغريب انه يشملنى شعور باللذة . سعيدة بأن أرى مدينــة الآلات والأوتوماتيك والروتين فى حالة من ســحبوا من تحته المقعد وهو يتهيأ للجلوس باطمئنان . خبيثة سعادتى هــذه ــ ولكننى أصيح فى العربة لزملائى : « تعيش الملاءة اللف التى طوقتك يا نيويورك سوداء » ولحقت بهتاف آخر : « يعيش صمويل بيكيت الكاتب الواقعى الأمجد ! » . الناس أشباح . القيادة ميتة . الاشارات مضللة ــ والكل يتعثر فى الطريق وهو يتعمد الصواب . القمر نعمة ــ ولكن آه لو يدنو قليلا . هل تذكرون قصة « وهران » المدينة التى صورها « البير كامو »

فى قصة الطاعون ؟ أيهما أكثر افتراسا : الطاعون أم انسلات الكهرباء من عروق نيويورك ؟ هذا هو موضوع بحث الليلة !

انني هنا الآن فى غرفتى بعد أن تحسست الدرج الى الطابق الرابع . فى البداية عندما اهتز النور فركت عينى . تصورت انني أصبت بالعمى المفاجىء . ثقة الانسان بنفسه أقل من ثقته بالعالم الخارجي . ساعتان الآن مع الراديو الترانزستور الصغير. أشعر بأن الأجهزة الضخمة التى كانت تغرينى عنـــد الجيران ـــ لا تساوى شيئا . الترانزستور المتواضـــع هو الشعلة التى يحسدنى عليها الجميع الآن ويقفون ببابى يرجون منى ســـماع الأخبار . المذيع يطلب منى ـــ ومن كل من يملك ترانزستور أن يضعه على النافذة حتى يتشارك الجميع فى الضوء الوحيد الباقى . عظيم ! موقف اشتراكى ! أعشق كل صوت يصلنى داخل هذا الفخ الأسود . ٢٠ مليونا من «سجناء التونا» . الظلام ممتد على طول الساحل الشمالى الشرقى لقارة النور والكهرباء . ممتد حتى كندا ـــ هكذا يقول لنا المذيع . اننا معزولون تماما. مدة ساعتين ونصف ساعة بلا تفسير واحد ؟ المذيعون يتكلمون. يتكلمون . يتكلمون ـــ بسرعة شديدة وبمرح عصبى وخوف ممتزج بلذة . يحكون أشياء تضحك ـــ قابلوا رجلا يصيح : « لقد فقدت زوجتى فى الظلام ـــ هذه أروع ليلة لى منـــذ

سنوات ! » ويقولون انهم ينظرون من الطابق التاسع عشر ، وان المدينة تلونها أضواء الشموع ـ والأضواء برتقالية ـ وان كل زوج مجبر اليوم على العشاء مع زوجته تحت أضـــواء الشموع العاطفية .

مرحبا أيها الحزن !

صه ! المذيع يقول انه لايستطيع أن يقرر السبب ، ولكنه سيقرأ ما أبلغه المندوب : عطب ما فى آلة ما فى منطقة شلالات نياجارا بالجانب الكندى . أفادكم الله . ولكنى لم أفهم شيئا أيضا المهم أن أحدا لايعرف كيف يمكن القضاء على الطاعون . شركة الكهرباء تحاول شيئا عبقريا تجربة لأول مرة ولكنها غير متأكدة من نجاحه ـ هو شيء فنى يتلخص فى فصل منبع الكهرباء الخاص بنا فى نيويورك عن المنبع الكبير الذى يشملنا مع كندا ـأو شيء من هذا القبيل. اذن فهناك احتمال أن يعود الضياء . ولكن متى ؟ الله أعلم . لاحظت الآن ان ثلاثة أرباع الشمعة تآكل فى ثلاث ساعات . الساعة التاسعة الآن ـ هل يمكن أن أنام الساعة التاسعة ؟ مستحيل ـ اذن سأبقى فى الظلام الدامس أواصل تتابع خيالاتى البرية والاســتماع الى الترانزستور . الفتى « لابورت » الذى أحرق نفسه هذا الصباح احتجاجا على الحرب فى فيتنام أمام مبنى الأمم المتـحدة ـ المسكين ما زال

يتنفس . لا أحد يود أن يربط بين احتجاجه وبين الظلام الذى يكتنفنا الآن ـــ ولكنى حاولت هذا الاحتمال . يحلو لى أيضا أن أستعيد قصيدة صلاح عبد الصبور : « هذا يوم خوان .. سألونا قبل الصبح عن الحق الضائع .. فنكرناه .. » « والأيام الأفخاخ .. من تحت ملاءتها .. أخفتها عنا مائدة الافطـــار .. » أحس الآن بمعنى توقف أجهزة التدفئة . الغرفة ثلاجة.. والثلاجة متوقفة . سيفسد اللبن . مثل نسيج شغل الابرة ـــ كل شىء مشتبك اذا انسلتت غرزة كرت معها كل النسيج .

***

هل ترى أفكر فى كل شىء ، حتى التعبيرات التقليدية ! حالة الطوارىء تتسع وتزيد . الاذاعة مستمرة على ضوء البطاريات والمندوبون ينزلون ويصعدون ١٩ طابقا ألف مرة يجمعون لنا أطراف الحكاية . جريدة النيويورك تايمز لحقت نفسها بمطبعة فى نيوجرسى ـــ الجارة المضيئة . لابد ان منظرها سيكون مضحكا وهى عشر صفحات فقط بدلا من المـــائة صفحة المعتـــادة ـــ سأستطيع أن أقرأها جيدا لأول مرة ! بقية الصحف لن تظهر غدا . شعلة تمثال الحرية لا تضىء سواه ! ٨٠٠ ألف من زملائى ركاب المترو محـــددة اقامتهم تحت الأرض . خيـــالى البرى يتوهج أكثر ـــ وموضوع مسرحية يداعبنى . المدينـــة مليئـــة

بالمواقف المسرحية الرائعة . أروع ما فيها انها ليست مسرحية . فلنطمئن اذن ان أحدا لن يهاجمها بتهمة الافتعـال والتشـاؤم والسـوداوية ! النـاس مؤدبون جدا فى تعاملهم سـويا .. ومتطوعون كثيرون فى الطريق للارشاد . كم يوما فى الظـلام والشلل يستطيعه صمود الأدب ؟ النـاس عادة تحب المواقف التى تمكن لها فرصة ممارسة النبل والشجاعة حتى تريح قليلا ضميرها المثقل ـ ولكن يجب أن ينتهى الموقف قبل أن يدب الملل وتذهب الشاعرية . الشمعة ماتت منذ مدة ولكن «لابورت» ما زال يتنفس و ٩٥ ٪ من جسده ميت . أكتب على ضـوء لهب البوتاجاز الأزرق . النوم مستحيل ولكن الأحلام تغلبنى . هناك سباق بين شركة الكهرباء والفجر والقمر يضحك ـ فهو الوحيد المكتمل .

تحياتى وشكرا على صحبتكم فى الساعات المظلمة . مسكين « لابورت » : انه لم يمت بعد !

جميع الرجال يلدون

* انحناءات الطريق أخذتنى منهم ورغم شعورى برغبة الالتفات جانبى لكسر تكرار المدى الممتد أمامى الا اننى وفرت الحركة .

واحد منهم يحكى حكاية تكلفنى آليا ان أبتسم وأهز رأسى ولكنى أستطيع أن أسرح . هؤلاء ليسوا أصدقائى انهم فقط المجموعة التى أراها كل يوم وأجدنى بينهم كل ليلة . وهزت هذه الحقيقة حزنى برهة فتألمت ولكننى سمعت ضحكا صاخبا فانتحلت بشحنة حزنى ضحكة واسترحت .

قررت أن أملأ فراغى بينهم بنسج قصة ولكننى فضلت أن أنسج أولا تجربة : اننى قدمت استقالتى وسألونى عن الأسباب فنظرت بلا تعبير وقلت بصوت مباشر : لا شىء . وعدت الى

نسج القصة :

***

محطة قطارات . مدينة غريبة . زحمة . أنا . هو . تتلكأ . هو بلا وجه وصوته ضائع تحت العجلات . رائحة قهوة مكثفة . مددت يدى وقلت ان قطارى قادم . يهز رأسه . أهز رأسى . وأسحب يدى وأطلب منه أن ينصرف . يقول أنه متأســف . أبادله الأسف وأحمل حقيبتى وأبتسم ابتســامة عريضة . يهز رأسه وينفعل وجهه الذى لا أراه : آه من قوتك .

أسمر عينى من نافذة القطار على الحقول . لا أحد يعرفنى فى القطار . لا أحد معى فى القطار . لن أضــحك مشــاركة للضحكات الأخرى . لن أتفق على مطعــم نأكل فيه جميعــا ونقتسم فى النهاية التكاليف . الحقول تلائمنى . لونها بنى . تلائمنى . القطار ملكى . أملكه لأن لا أحد يملكه . لا أغمض عينى لأحلم . عينى على امتداد الحقول كأنها مغمضــة . لون الحقول مثل لون باطن جفنى عندما أغلقه على عينى لأحلم . لن أحلم بالمحيط ولا بالصحراء . غيرت فكرى ــ ولا بالأنهــار والأرض المجهولة . أحلم بعندما يتوقف القطــار . لن أهمس باسم المكان لأنه مكون من حروف كثيرة متداخلة . ســأقترح أن يتغير الاسم الى آخر أطول حتى لايمكن كتابته . ســأثير

بعض التعديلات بالنسبة لسعر القطار والحمولة . سأجعلها معقدة حتى يصعب الانصات الى وتنفيذ ما أريد . يجب أن أقترح دائما الأشياء حتى لا تتحقق . تصبح ملكى وأستطيع أن أحلمها . أطلبها بتكرار واخلاص حتى تنضج الرغبة وتتعلق من شريط حذائها مقتولة فيتنفس الحزن ويصبح طفلا شرعيا لا أحتاج الى انكاره .

طفلى : الحزن . طفلى . ولدته كل ليلة . وخبأته : اشتريت له حقيبة سفر قاتمة أهربه داخلها ــ وكم تمنيت لو اشتريتها سريرا ورديا أهدهده فيه وأغنى : هذا طفلى موجود بلا سبب .

القطار تملؤه حقائب سفر قاتمة والأطفال مختنقة . لو تبادلت الاعتراف مع جاري ربما أمكننى اطلاق طفلينا : ربما دبرنا معا خطة لتتنفس جميع الأطفال : يصبح الحزن حرا وتقر به العيون وتتحقق الراحة وتعم السعادة :

ــ سيدى : هل يشبهك طفلك ؟

ــ ليس لدى أطفال .. ماذا تقولين ؟

ــ سيدى : طفلى يبكى أريد أن أطعمه .

ــ أين طفلك ؟

ــ فى الحقيبة .

ــ ليس لدى أطفال .

ـــ لست أول حالة . لا تخف .
ـــ ليس لدى أطفال .
ـــ كل الرجال يلدون . لا تخجل .
ـــ لم ألد أى طفل .
ـــ القطار لن يقف .
ـــ معى التفاصيل : سيقف عند كل استراحة .
ـــ الجدول تغير بعد انتحار السائق .
ـــ طفله قتله .
ـــ تماما . أنت تعرف اذن .
ـــ حادثة غريبة . لم ألاحظ أبدا انتفاخه بالطفل .
ـــ كل الرجال يلدون .
ـــ الطفل قتل أباه .
ـــ كان الأب يخنق طفله .
ـــ يجب أن نعقد محاكمة .
ـــ المتهم رقم واحد :
ـــ نقطة نظام : المتهم واحد .
ـــ موافقة : المتهم الوحيد : المستحيل .
ـــ التهمة :
ـــ انه منذ بداية التاريخ

ـ نقطة نظام : لدى اعتراض لغوى : بحذف كلمة «بداية»
وتعديلها الى كلمة أخرى .
ـ لا أوافق على التعـديل فالكلمة غامضـة بما يكفل عدم
الالتباس بالحرفية .
ـ استمرى اذن .
ـ انه منذ بداية التاريخ
ـ نقطة نظام : لدى اعتراض زمنى .
أفضل حذف كلمة « التاريخ » لعدم التأكد من ..
ـ لا أوافق ـ فالكلمة روتينيـة بما يكفل عدم الالتبـاس
بالروتين .
ـ استمرى اذن .
ـ انه منذ بداية التاريخ والانسـان ما فتىء يركض وراء
المستحيل . ما انفك يطمح اليه ويستعذب انه ـ المسـتحيل ـ
يتخفى وراء أقنعته الكثيرة عسى أن يتحقق له التيـه ويستمر
الركض . يستمر الركض : هذه هى الغاية .
ـ نقطة نظام : أفضل اعلان التهمة .
ـ ان « المستحيل » قد استنفذ طاقة صبر الانسـان الذى
تسامح عبر الطريق وأعطى « المستحيل » كل الفرص ليتخفى
ولا يمكن اللحاق به (الى درجـة لجوئه أحيـانا الى الغش

والكذب والتزوير ليـؤكد عدم رؤيته له) بالرغم من كل المحاولات الانسانية فى عدم اللحاق « بالمســتحيل » الا انه لا يفوته الا أن يكون فى متناول اليد .

ــ وازاء هذا ؟

ــ ازاء ان « المستحيل » يتحقق فهو لايترك للحزن مبررا للتنفس : فيقول أنا هنا لأن أبى حاول أن يصل ففشل .

ــ الحزن موجود بلا سبب ؟

ــ استعملوه أولا سائلا فى خلط طين آدم ليتماسك . كان غرضا فنيا قديما مثل : الزوائد المنقرضة الآن . حاولوا ونجحوا فى استئصال كل الزوائد التى استنفدت غرضها الا « الحزن » لم يعرفوا الا انه جنين دائم يريد أن يولد كل يوم حتى يمكن انقاذ الآباء . ولكن الاشكال انه يحتاج الى مبرر لكى يؤدى وجوده . مبرر لكى يتقبله النــاس جالسا الى جوارهم دون استنكار أو خجل . وغياب المبرر يعرقل الولادة ويخنق الحزن داخل أرحام الآباء فينتشر السم ويقتلون دون معرفة . بغتة . والذى يعرف منهم يقتل نفسه حتى لا تحوم حوله الشبهات . ومن‌هذا يمكن ارجاع الجريمة الى : « المستحيل » لأنه يتحقق .

ــ التهمة اذن ثابتة .

ــ نعم : افتحوا أيضا الحقائب وعاينوا حالات الاختناق .

ـ القطار مستمر فى الركض .
ـ فرصتنا لتحرير الأطفال الآن اذن .
ـ ربما توقف .
ـ مستبعد أن يتوقف بلا سائق .
ـ ربما تطوع أحد الجالسين .
ـ ربما : فرصتنا .
ـ افتحى حقيبتك أولا .
ـ مفتوحة : أولا ترى سعادتى وعين رضائى .
ـ كم عمر طفلك فى النور ؟
ـ ست سنوات .
ـ هل يتكلم ؟
ـ تأخر فى الكلام بسبب سوء التغذية ولكنه استطاع أخيرا أن يغنى قصائد صغيرة .
ـ ما أبهى لثغته .
ـ ليس أحلى من تعثره .
ـ انظرى : كأنه كبير .
ـ ليس أغلى من الضنى .
ـ نعم : ليس أغلى من التعب .
ـ افتح حقيبتك .

ـ لا أقدر بعد .
ـ سأسامحك فى الثمن : افتحها .
ـ أخشى على طفلى يراه الركاب رخيصا .
ـ كم معك ؟
ـ كان معى ولم أدخره .
ـ ماذا اشتريت ؟
ـ ما يعجزنى عن شراء طفلى : هل ترين هوانى ؟
ـ هل تراه أنت ؟
ـ أراه .
ـ هذا مبلغ كاف : حرر طفلك .
ـ ليس أغلى من الضنى .
ـ نعم : ليس أغلى من الهوان .
ـ ماذا كانت عقوبة « المستحيل » ؟
ـ اننا أهملناه وركضنا بعكس الطريق .
ـ وبقية الأطفال ؟
ـ سمع الآباء حوارنا : لو شاءوا ادخروا الثمن :
ومؤقتا يكفيك اعترافى ويكفينى اعترافك .

***

هزتنى المجموعة التى أنا بينها قالت انى أتيت شيئا فريا .

أشرت الى دموعى فاهتزت الرؤوس حيرة وقلة صـــبر : كيف نكلمها ؟

وضعت على فمى اصـــبعى ولذت بالصمت كما أوصـــانى « الخضر » .



نيويورك ١٩٦٦

الفنان ميت يتسلى بالخلق

وصلت أخيرا الى شجاعة الاعتراف بأنى أكره الفن . الشعور أنا متأكدة منه وان كان التعبير عنه لم ينضج تماما على لسانى ، فقليلون جدا الذين عبروا قبلى عن مدى كراهيتهم للفن ولذلك فان تراث التعبير فى هذا الموضوع قليل وغير متوفر ، وهـذا يجعلنى رائده فى الحقل وهو أمر شاق جدا . وكل الذى وصلت اليه للآن هو خطوط عامة للفكرة تجرى كما يلى :

* الاعتراف بأنى أكره الفن . رأيى ان الفنان ميت يتسلى بالخلق : لقد وصلت لدهشتى ـ الى ملاحظة ان الفنان انسان فشل فى تحقيق الحياة فهرب الى الابداع . وملاحظة انالانسان المتكامل السعيد هو الذى حقق حياته ولا يمكنه الخلق الفنى لأنه شبعان . وغالبا يصل صمم الفنان عن الحياة التى هى : زرع

وحصد وثأر وحب ومثالية وبدائية وعرق وتعب ورجل وامرأة وانجاب أطفال وموت ـ الى عجزه عن الاحساس باللحم والدم فنرى ان عطفه على بطله الذهنى أو تمثاله أو لوحته وقلقه على أسلوبه وقوالبه أكبر جدا من عطفه وقلقه على جاره مثـلا . وغالبا ـ أيضا ـ ما نجده لا يهتم بمتابعة الصحف لأنه يفضل العزلة ويكره البشر ـ يتحايل عادة باتهـامات شتى يبرر بها كراهيته للبشر ، وأكثر الاتهامات شـعبية وانتشـارا اتهامهم بالتفاهة وعجزهم عن الفهم وبلادة الحس ـ وهو غارق فى الشفقة على نفسه ويميل الى اعتبارها طبقة أرفع من الانسان الكامل وجديرة باستثناءات خاصة . فى كل مطالبه باستثناء أو امتياز يخبث عادة النتن ـ وهذا هو جبروت الميت حقا مما يجعل أمر تقديس الفن مضحكا جدا . الفن هو الكفن الذى يجمع رفات الميت (الذى يكون أحيانا محنطا الى درجة بارعة لا يبدو فيها الميت ميتا) .

* لو شئنا ضرب الأمثلة : ملاحظة ان الطفل الذى لديه نزعة فنية هو الطفل المحروم من الصحبة أو الاهتمام أو القبل. وأستطيع هنا أن أقارن الفنـان بالمرأة التى تعجز عن انجاب طفل حقيقى فتتبنى كلبا أو قطا أو دمية تفرغ فيها أمومتها . هذا فى صورته الظاهرية تصريف وعلاج ولكنه أيضا تبـديد

فى واقعه لكميات الحنان الانسانية الضائعة على شىء لا يعى : مثل عبادة الأصنام أو مضغ اللبان .

* هذا الرأى له تفصيلات أخرى كثيرة فاحساسى به للآن أكبر من قدرتى على التدليل عليه واثباته وأتصور ان أحدا لن يوافقنى عليه . فالناس — التى باع لها الفنان الترام منذ عصور تاريخية قديمة من الصعب عليها أن تعترف انها ساذجة الى درجة الحمق — ولكن كل انسان كامل جمعته صدفة صداقة أو قرابة أو زواج أو تعامل مع فنان يستطيع أن يؤكد أن معاشرته مملة للغاية — وهناك الأحاديث التى تدور عن حالة خيبة الأمل التى تصادف كل من قابل فنانا سبق أن أعجبه فنه .

* جوهر القول هو شعورى بالسأم الشديد من الشد والجذب والتمزيق المستمر لأوهام الانسان المتكامل وتدويخه بمناقشات ومعاقرات أهم منها كلها جلسة مريحة فوق مقعد هزاز وابتسامة راضية لأنها : جاهلة . لأنها انسانية : جادة وطازجة لأنها طفلة . ولعلى أستطيع أن أوضح أكثر فكرة العازل الصوتى . زكيبة النايلون التى يجلس داخلها الفنان — كلهم : تعميم — بهذه الهزلية — التى عقمتها من كل الملامح الفنية — وأبدؤها بهذه الملحوظة : ليس هناك علاقة بين الواقع والخيال وان كانت هناك علاقة بين الخيال والأحلام وأى علاقة بين هذه

الهزلية والخيال فهى حتما علاقة غير مقصودة .

***

مسرح لا مسرحى :

مونولوج : هزلية :

(المنظر الخارجى : امرأة شابة ورجل فى نهاية شبابه فى شقة وحدهما . صمت واجم تقطعه أحيانا حشرجة ورقة أو طقطقة خشب مسند المقعد وهو يتمطى فوقه أو صوت خشب الأرضية وهو يطؤه بأقدامه أو أى صوت آخر من هذا القبيل) .

هى ــ أعدت سماعة الهاتف . عدت الى مكانى بهدوء . أمسك بالمقبض المعدنى . أواصل عملى فى صمت . فى ذهنى لا شىء يدور . أشعر بخدر يمسك مؤخرة رأسى ويتمدد دبيب أحسه فى ذراعى ورقبتى وصدغى . احساسى بملمس المقبض المعدنى فى يدى يتلاشى وأنا مستمرة فى فتح الخطابات المكومة أمامى على المكتب . المقبض المعدنى يسقط من يدى الآن . أتتبع دبيب الخدر وهو يتوغل داخلى ويخرس كل شىء .

(هو فى غرفته متوترا . عيناه تقرصان على نظراته وحاجبه يرتعش فى قلق . يده تمتد الى الهاتف ثم يتركه ويبحث عن شىء ما تائه وسط زحمة أوراقه .

يده على الجرس تدقه مرتين . ضاقت نظراته أكثـر وارتفع حاجبه فى ترقب وهو يكوم شفتيه على ضبة فمه فى حدة) .

هى ــ عملى هو تلقف هذا الجرس وإجابته فورا . لم أقرر بعـد أن أترك عملى ولكنى ما زلت فى مكانى لم أتحرك . الجرس الآن متواصل . صـوته يختلط مع دبيب الخدر الذى يسجننى فى مكانى ويقيد تعبير وجهى .

(هو يترك الجرس . ينهض فى عصـبية ويندفع الى الباب ثم يتـوقف . يترك المقبض ويشبك يديه خلف رأسه وهو يضم مرفقيه يضغط بهما وجهه فى عنف) .

هو ــ كان لا بد أن أفعل هكذا . لم يكن ممكنا أن تظل هكذا .. ماء رائقا صافيا لم يعكره شىء . ما معنى أن يظـل الجسد قديسا وكلما يملؤه خاطىء .. لكن الموقف كان قاسيا.. قاسيا .. ؟ هل هذا تعبير موفق ؟

(هو ــ يعيد ضم مرفقيه، يضغط وجهه فى قوة أكبر)

هى ــ صمتت دقات الجرس ولكن رنينه المتواصل لم يختف

من أذنى . الدقات عنيفة . ملحة . كان يجب أن أجيبه ولكن لم أكن أتصور أن يحدث هـذا . لمـاذا ؟ أنا لم أنتظر ذلك أبدا .. هل كان من الممكن أن أتوقعه ؟ شكواحد لم يثر داخلى يمهد لى ما حدث .. لماذا تحدث الأشياء فجأة ؟ كل شىء تكدر والألوان كلها يحجبها شحوب .

(غرفته يتلبك فيها دخان السجائر التى يشعلها ويتركها تحترق على المنفضة) .

هو ـ لماذا أشعر هذه المرة بالضعف ؟ لماذا يخنقنى هـذا الاحساس بالذنب ؟ لماذا تضخم الشىء العادى هذه المرة ؟ أنا لم أفتعل الظروف .. كل خيط كان يسير تلقائيا ليلتقى هكذا.. ربما لأنها بريئة جدا .. ولكن هذا خطؤها .. السطح الراكد ألا يغرينا دائما بالقاء حصـاة فيه تثير تموجه .. صحيح انه ألقى بأكثر من حصاة .. ولكن ..

لأنها كانت راكدة جدا .. وان كنت أشفق عليها المسكينة ..

هى ـ مضحك أن أشغل ذهنى بالتطلع الى ألوان الأشياء حولى .. لكنى لا أضحك . الألوان كلها رمادية . ظلال سوداء غيمت كل شىء .. حتى نفسى لم تعد بيضاء . أشياء غريبـة جديدة ألمحها ترتطم داخلى وتجعد السطح الهادىء .. الحقيقة قديمة ولعلى كنت أعرفها .. ولكنها شىء آخر عندما تمسنى .

أكره الادراك . أكره التجربة . أكره البرهان . سخيف أن يتوه مني الضحك ولا أستطيع البكاء . بلا ادراك أنا أقدر على الحياة . الادراك هرم : شلل يعوقني عن السير . يعوقني عن الحزن .. عن الغضب .. عن الصراع .. عن اللذة .. عن الراحة .. عن القلق .. عن الأمن .. آه يا جهلي الغالي كيف أستعيدك ؟

(الدخان في غرفته يتعقد . ينهض في تثاقل ويغلق جهاز التكييف ويشد زجاج النافذة يفتحه . وتنعشه نسمات الهواء المندفعة داخل الحجرة . نظراته ترتاح وحاجبه يستقر وفمه يفرش ابتسامة يطل منها ضبه في رضاء) .

هو ـ كل شيء قد استقر أخيرا . لم يعد هناك سوى أن أدق الجرس مرة أخرى .. أو .. لا داعي .. أذهب اليها بنفسي.. ربما تغضب قليلا .. ولكنني أعرف كيف أقنعها .. ألا أترك لها فرصة للنقاش .

هي ـ قادم الي ؟ ماذا يريد ؟ انتهى . يجب أن أخبره انه لم تعد هناك قدرة للاستمرار .. ما فائدة أي شيء ؟

هو ـ لا تذهبي ..

هى ــ الساعة أصبحت ..

هو ــ أعرف .. ولكنى أحتاج اليك الآن ..

هى ــ لم أعد أستطيع ..

هوــ ليس هناك فرصة سوى الآن ..

هى ــ ولــكن ..

هو ــ لماذا .. يجب أن أتوسل ؟

هى ــ يجب أن ..

هوــ يجب أنت أن تقدرى كم تعذبت .. أنت تتعاملين مع انسان غير عادى لست فى مصنع تنتهى ساعاته فى رتابة أوقات معينة .. أنا .. اننى .. انى .. اقتنعت ؟

هى ــ عدت مرة أخرى الى مقعــدى . سكرتيرة فنــان . مرهقة . كيف استبد بحقى ؟ أمامى الآلة الكاتبة . أصابعى تكتب ما أحاول أن أعيه من الكلمات التى تضع نهاية روايته الأخيرة . تعذب وهو يكتبها . تألم وبكى . بكى . بكى لها . بطلته كيف أستطيع أن أجعله يعلم انى عرفت الموت . ان طائرة ســقطت بأبى فى البحر . أبى مات . نهاية قديمة . بسيطة جدا . مجرد هكذا . هكذا . هكذا . ضغطة اصبعى على مفتاح النقطة فى نهاية كل جملة . لا تلفت عينيه الى . عيناه ترقبــان أســطره المطبوعة . عيناه سعيدتان غارقتان فى عبادة حروفه .

عيناه لا تدركان النقاط فى نهاية كل جملة . لا تدركانى . لا تدركان . أكره عينيه . أكره لذته . أكره الصمم الذى يزيف به الصمت .

(المنظر الختامى : المرأة سكرتيرة هرمة تجلس الى آلة كاتبة خالية من الحروف وأصابعها مستمرة فوق المفاتيح تلاحق ما يمليه عليها الرجل : مؤلف جسده غارق فى سحابة من الدخان تحجبه تماما . يبدو رأسه فقط جمجمة جافة . مكان عينيه محجران فارغان ومكان أذنيه ثقبان يملأهما رمل) .

نيويورك ١٩٦٦

نشوة

هذا خطاب كتبته الى صديقة لم أقابلها أبدا ولو رأيتها فى الطريق لما تعرفت عليها ، ولعل هذا أكثر ما يؤهلها لأن تكون أقرب أصدقائى فرأيى دائما ان المعرفة الخارجية تعرقل المعرفة الداخلية . أحلى ما يعجبنى فى الصداقة التى تربطنى بها انها تجعلنى أتكلم لسانى المريح . الانسان يتكلم لسانه المريح عندما تتهيأ له عدة عوامل : عندما يكون المستمع مستعدا لأن يسمع وعنـــدما يكون خلاقا وله خيـــال فلا تقع الكلمات على أذنه كالجثث ميتة : أن يكون له قلب دافىء يمكن أن تتخمر داخله الأحاسيس التى تنقل اليه وتتكاثر .

هوخطاب كتبته وأراحتنى كتابته كما تريح الخاطىء اعترافاته للقسيس والمريض ثرثرته لدى طبيبه النفسى . وكما اتفق العقلاء

فان الأدب الحديث كله له ظاهرة واحدة هى ظاهرة التنفيس عن تعقد ما ينوء بحمله انسان العصر الحالى — حسنا هذا جسدى فكلوه .. هذا دمى فاشربوه .

* نيويورك ابريل ١٩٦٦

عزيزتى :

أريد أن أشكرك وان كنت قد تألمت كثيرا فى الفيلم Rapture «نشوة» . رأيته ليلة أمس لأنك أوصيتنى أن أراه — ولا أدرى لماذا ؟ ما الذى أعجبك فيه ؟ الشىء الذى آلمنى ؟ غريب . الفنانة « جوتزى » رأيتها من قبل وأحببتها فى فيلم « أيام الآحاد مع سيبيل » — وشعرت يومها انها تشبه أختى وجها وتشبهنى نفسا — وعندما رأيتها أمس فى « نشوة » أحسست ان أحدا يكسر زجاج مرآتى فى عينى . المأساة عندما يغضب الآباء ولا يجدون منفذا لغضبهم الا واحدا من أولادهم . ولقد غضب والد « آنا » عندما ماتت أمها ولم يبتسم لها أبدا ولم يقبلها وغضبت أمى كثيرا عندما مات أبى . ونظرت الى ووجدت ان عمرى ست سنوات واننى لا أبالى — أو هكذا تصورت — فأرادت أن أبالى . ولم تبتسم فى وجهى أبدا وقبلتنى مرة ورقصت من الفرحة «هيه ماما باستنى» . وانزعجت من فرحتى وقالت انها لن تعيدها ما دمت أفضحها هكذا . كان الاعتقاد

ان الابتسام واظهار الشعور ترف ودلائل فرح ونحن يجب ألا نفرح أبدا وأبونا ميت، وأحببت القمر . أحببته حقيقة . وتعجبت من مصادفة أن بطلتنا أحبت الشـمس . وكنت أنظر اليه من « الفراندة » وانتظر فرحة اكتماله بدرا . وأحس ان هذه هى ليلتى الكبرى مع حبيبى . وأنزوى فى الطرف لأحدثه بعيدا عن ضوضاء تأنيب « محمد » الطفل الذى يعمل لدينا لأن الخضرى ضحك عليه وسرق من ميزان أرطال الخيار . كان يؤلمنى تأنيب محمد . يؤلمنى انه طفل فى بيت غرباء وانه يعمل وعليه مسئولية. كان وجهه وديعا بريئا لا يحس بالعذاب الذى أحسه له . وكنت أقول له انهم يؤنبوننى أيضا واننى مطالبة بمسئولية لا أقـدر عليها : الا أمرح والا أظهر شعورى . ورب ان «محمدا» لم يكن يفهم كلامى ولكنه كان يحس تأييدى له ولذلك كان يبتسم وهم يأنبونه . وأدخلوه المدرسـة لكيلا يخطىء فى الجمع والطرح والقسمة . وقالوا لى اننى مسئولة عن فساد الولد الذى بدأ يسرق . وقلت للقمر حبيبى ان « محمدا » طبيعى جدا وان السرقة فى مثل عمره ليست جريمة فكل الأطفـال يسرقون و « جان روسو » ذكر فى كتاب اعترافاته انه سرق وأنا سرقت خطابات أبى لأمى وقرأتها جميعا وكان هناك سطر يقول لها فيه « لا تضربى الأولاد » ولم أدر لماذا لم تسمع كلامه . وقد ضربت

كثيرا بسبب طول لسانى وبسبب جنونى وحديثى مع القمر ومع المرآة ومع المذياع الكبير وأرنبى « فريدون » الأبيض وقطى « بهرام » الأسود . ولم يفهم أحد لماذا لم أحب الدمى ولمــاذا لم أفرح بالترام اللعبة الذى اشتروه لى ، وقلت : كان يجب أن يعطى ثمنه للفقراء وقالوا : اننى شريك مخالف . وقد كرهت الدمى دائما لأنها بلهاء وسخيفة وتعبيرها واحد وليس لها لسان أما القمر فكانت له ألف يد . وكان يربت على ويقول لى بهزة صغيرة من رأسه دون أن يسترسل : « صافى .. أنا أفهمك » . وقرأت له كل أشعارى الصغيرة وقال اننى أكثر من استعمال كلمة « طالما » وقلت له : لأننى تعلمتها حديثا وان نغمتها فى أذنى تعجبنى ـ فقال لى : ان كلمة « طوبى » أحلى . ولم أقل للقمر اننى أحب المذياع الكبير أيضا حتى لا يستاء ولأن حبى للقمر يختلف عن حبى للمذياع الكبير فالقمر حبيبى أما المذياع الكبير فكان أبى . كان كبيرا « تليفونكن » اشتراه أبى سنة ١٩٣٢ قبل انشاء الاذاعة اللاسلكية المصرية وقبل ميلادى بخمس سنوات . وكان دائما معنا من القاهرة الى الاسكندرية ومن الاســكندرية الى القاهرة وكان صندوقه الكبير مخبأ تحت سريرى أنا وأختى فاطمة وكنت أختفى داخل ذلك الصنــدوق كلما أحسست ان « علقة » الموسم قادمة .

وعندما مات أبى اقتنعت لسبب غير واضح ان « بابا » داخل المذياع . لذلك لم أبك . وقالوا : اننى قليلة الحيـاء جامدة الشعور . وعندما قلت ان بابا داخل المذياع بكوا لأننى على أية حال كنت بمولدى زيادة فى العـدد ولم يكن من الواجب أن أكون أصلا . ولم يهمنى ما دمت أضع رأسى على صـدر المذياع أسمع منه كل الحكايات والأغانى وأجمع كل ما يقوله عن القمر . وأرسلت اسمى الى « بابا صادق » و«بابا شارو» لكى يذكرانى ويقولا انهما يرحبان بصداقتى . وفرحت عندما سمعت صوتى أغنى مع « عش العصافير » ـ وعدت أقول لماما ان « احمد خيرت » و « بابا شارو » قالا ان صوتى جميـل جدا واننى سأغنى بمفردى فى المرة القـادمة فقررت منعى أنا وأختى فاطمة من الذهاب خوفا من أن تتحول الى مطربات مثل « نجاة الصغيرة » التى كانت تغنى مع « بيت الفن » وتحولت وقتها الى مطربة . وقالت « فاطمة » فى احتجاج اننى كاذبة وان « بابا شارو » لم يلحظنى بالمرة وان « احمد خيرت » لم يحدثنى اطلاقا واننى دائما أكذب وأؤلف حكايات من بنـات أفكارى أكون فيها بطلة أو مهمة . وجرحنى تكذيب فاطمة أكثر من قرار حظر الذهاب الى اذاعة الأطفال وقررت أن أثبت لها اننى بطلة رغم أنفها ـ فجلست فى حديقة مدرسة روضة أطفال

العباسية أقول للأولاد والبنات انني أستطيع أن أشرب الحبر، وآكل الطباشير . والتفت كل المدرسة حولي فى الفسحة الكبيرة وجاءت « فاطمة » ترى سبب الزحام ووجدتني جالسة فى الوسط والأيدى ممتدة الى بدوايات الحبر وأصابع الطباشير وأنا أشرب وآكل بهدوء وطبيعية منقطعة النظير ، ووقفت تقول : « أنا أختها » واحترمتني على طول طريق العودة وحكت لماما بفخر ودهشة . فقالت ماما : ان الطباشير كالسيوم مفيد للعظام ولكني يجب ألا أشرب الحبر لأنه ربما جعلني سوداء . وضحك بقية اخوتي . أما أختنا الكبرى فقالت : « أما والله .. البنت دى مجنونة » .

وكبرانا لم تكن تفهمني مطلقا . كانت هى الطبقة الأرستقراطية فى بيتنا وكنت أنا الطبقة الكادحة . كنت أحيانا أنتحل صورها وهى طفلة ومظاهر العز والرفاهية تحوطها وأقول للعيال بالمدرسة ان هذه صورى ثم تضبطني « فاطمة » وتكذبني كالعادة . وكنت أقول انني أكثر اخوتي شبها بأبي فيقولون : « شتان » ــ كما تشبثت ــ آنا بصراخها . انها تشبه أمها تماما لأنها كانت تسمعهم وهم يمدحون صورة الأم الجذابة ولكنهم حطموا حلمها بانكار الشبه . وتنظر « آنا » فى المرآة وتسأل الفتى الذى صنعته بوهمها فتاها تسأله : « هل تعتقد انني

قبيحة ؟ » وتعرف هى انها ليست قبيحة ــ فليس هناك أحــد قبيح ــ ولكنها تريد اعترافا خارجيا غير غرورها وعنــادها . وتحكى له عن نفسها . تحكى ما لم تحكه لأحد . ليست مجنونة ولكنها خلقت جنونها لكى تطفو فوقه وتعيش . وتقول له بكل جدية الطفولة : « هل رأيت .. الى أى مدى أحتاجك ؟ » ورغم انهم كانوا يعرفون الى أى مدى كنت آحب القمر والى أى قوة كنتأتمسك بمذياعى ــ قرروا أن ننتقل من البيت الى بيت آخر لا تطل « فراندته » على القمر .

وعندما بكيت وقلت لهم السبب لم يفهموا معنى التضحية بالبيت الأفضل من أجل القمر . واشتروا مذياعا جديدا ماسخا ومزوقا وأبله مثــل الدمى التى كانوا يغروننى بها عن الأرنب والقط . وقالوا انهم سيتخلصون من المذياع الكبير لأنه شاخ ولأنه مصاب بالسعال ويفقد النطق أحيــانا كثيرة ــ ووقفت أحميه وقلت لو مسه أحد سأقتله . وهمست كبرانا بجمل من كتاب علم النفس الذى كانت تدرسه فى الجامعة . وتركوا لى مذياعى . احممــه بالمــاء . وأدلكه بزيت الزيتون . وأزوقه بالزهور . وكنت أحترمه وأقبل رأسه كل صباح وأستأذنه عند الخروج . ورغم اننى نجحت فى الاحتفاظ بمذياعى الا اننى ما زلت حزينة على « بهرام » القط الاسود الجميل الذى أخذوه

من بين ذراعى لأن كبـرانا تكره القطـط . وما زلت أذكر « فريدون » أرنبى الأبيض الذى تبنيته منـذ ولادته وتركته يرتع ويلعب فى كل حجرات المنـزل حتى أكون له شخصيـة شجاعة جريئة مستقلة غير مذعورة . وغمرته بالحب والحنـان وكلمات الغزل حتى يثق بنفسه وتنتشى روحه بسعادة حقيقية . ولكن تربيته لم تعجب ماما وقالت انه قليـل الأدب وانها فى حياتها لم تر أرنبا يرتع فى حجرات بيت محترم ويدخل حجرة الصالون ويتبول على السجاد أمام الضيـوف . وأخذوه من ضلوعى وأمروا بذبحه وسلخه وصنعت بمرقه ملوخية . وبكيت بكاء الثكلى ورصاص بوليس العدالة يمزق رأس فتى «آنا» لأنه هارب من السجن ، ولم يشـفع له انه احتضن جنـونها وجنونى وجعل لهما معنى رائعا .

نيويورك ١٩٦٦

ثلاث شطحات قصيرة

١ ـ زهرة تيوليب مختفية وبكائية الغريب

فى الصباح انغرس مسمار حذائى فى الطريق الذى ألفه . توقعت ملقف الهواء عند المنحنى أمام بائع الزهور . ابتسمت له أرد تحيته . توقفت لحظة عند واجهته الزجاجية لأمعن فى زهرة نرجس : صورتى المنعكسة . لم أتعرف عليها بسهولة أوشكت أن أحييها . لاحظت الكتاب فى يدها . تذكرت جيدا انه كتابى انها انا التى أحمله . بحثت فى جيب معطفى عن دراهم استبدلتها بتيوليب مزيج ألوان . شعرت نحوها برثاء وهى تدلف معى الى الممر المزدحم بالأنفاس . أجبت كل تحية سمعتها حتى التى لم تكن موجهة الى . نسقت التيوليب فى مكان اختفى فى اللحظة التى بدأت فيها عملى . أدرت التسجيل ورحت فى

سبات . عندما رأيت فرجة الباب تتسع ويطل منهـا رأس لم اندهش انه كان متصلا بجسم رجل ، تعجبت فقط من ابتسامته الى التيوليب المختفية . تعلقت بها . لم أتوقع أكثر .

تمنيت لو يجلس وتستمر ابتسامته فترة حتى ينتهى التسجيل . تابعت تحركه فى المكان ووقفته الممعنة والتقاطه الأشياء . تثاءبت أنفض جزءا من السبات . أجفلت فجأة . لم أتوقع المفتاح الذى أخرجه . قلت : السمك فى المحيط لم تهمه الأسماك المذبوحة فى مطبخ السفينة .

عرفت ان ابتسامته لم تكن قد لحظت مكان التيوليب .

***

(هامشية : تلك الليلة شعرت بحزن شديد وبينما كانت تسير فى طريقها الى القطار تحت الأرض خطر لها فجأة والدرج يبتلعها الى أسفل انها جثة وحاولت أن تتذكر متى كانت الوفاة وهل كانت طبيعية أو بفعل فاعل ولم تصـل الى قرار مؤكد ولكنها قالت ان كل موت بفعل فاعل وأنشدت قائلة لبائع مفاتيح المرور بكائية الغريب التى تلى خارج القوس) :

ستة مفاتيح من فضلك .

وهذا هو الدولار .

مفتاح أضعه الآن لأدخل .

والخمسة الباقية مع العشرة
سنتات الباقية فى محفظتى .

***

أدفنها ــ الجثة ــ كل يوم بمفتاحين .
وتعاود الطفو الى الشاطىء .
وأخجل . يجب أن أكسوها .
لأدارى سوءتها أحملها وأدفع
بالمفتاح الثالث والرابع والخامس .

***

والمفتاح السادس أدفعه ولا تبقى الا السنتات العشرة
بها اشتريت جريدة .
تحت ذراعى أطويها ولا أقرؤها .
اشتريتها لأتخلص
من السنتات العشرة .

***

ستة مفاتيح من فضلك .
وهذا هو الدولار .
كم دولارا كلفنى دفن الجثة للآن ؟

لن أفلح ، دائمة الطفو الى الشاطىء .
تحت ذراعي ـ كل ثلاثة أيام ـ عشرة سنتات جريدة مطوية .

٢ ـ نكوص

محاضرة نقد هذه التى أنا بها الآن . هـذه المرأة الأستاذة تتحدث منذ شهر حديثا متواصلا منطقيا عاقلا بلا معنى . فى اللحظة التى تبدأ حديثها أبدأ فى تنسيق الشطحات التى تتلاعب فى رأسى والآن وهى تتحدث عن مقطوعة فى دراسـة الشعر هاجمنى شوقى الى رائحة التمر حنـة والريحان . غريب أن يلفحنى الحنين الآن لكنى مشتـاقة الى تحقيق رغبتى فى أن أتزوج رجلا يحبسنى فى البيت . لا أخرج الا مرة كل شـهر أزور الحسين وأفوت على العباسـية أزور نينة : أكلمها عن الكتاكيت التى فرخت . عن خمـيرة الزبادى . زراعة الجرجير والفجل فى حديقة بيتى البعيد . أين ؟ أين يكون مكان بعيد خلاء فى القاهرة الآن ؟ عند مسلة عين شمس ؟ عنـد الترعة الحلوة ؟ مكان قريب من شجرة مريم ؟ هذا المكان ما زال خلاء ؟ بيتى . بناء أبيض . حجرة واسعة . واسعة . واسعة جدا . سطحها محدب كأنها نصـف كرة تنس طاولة مكبرة الحجم . أتخيلها الآن . عندما أقف فى منتصفها أحس انى بين قوسين .

وعندما ألتصق بأحد جوانب الحـائط أحس به يستوعبنى . وأستطيع أن أنكمش فيه . الأرض مفروشة ببساط من الليفه المجدول . لونه سكرى . والسرير ديوان . بلا أعمـدة . بلا أرجل . ولونه عنابى . وسائد كثيرة . شكلها وألوانها مختلفة. متناثرة . صينية مزركشة على شىء يشبه الطبليـة الكبيرة . عليها فطائر . خبزى الذى أصنعه فى الفرن الذى يشغل مكانا فى الحديقة الكبيرة . كبيرة . كبيرة . لدرجة تخيفنى أن أتجول بها فى الليل . رغم انى زرعت كل حوض بها . التمر حنة . الريحان . الجرجير . الشبت . النعناع . وبها شجرة جميز . آكله رغم انه غير مختون . عندى أرانب . وحمام . وكتاكيت. ليس هناك فراخ . أذبحها أولا بأول . لا أحب شكل الفراخ ولا صوتها . فقط فرخة وديك للبيض والتفريخ . وعندىعنزة . صوتها المسلوخ يضحكنى فىالصباح . واسمها عكرشة . زوجى يأتى لى بالنقود . لا أعرف من أين . ولا أسأله . يخرج كل صباح الى مكان لا أنظر الى اتجاهه ويعود بعد العصر ، لكنه يبقى معى طيلة يوم الجمعة ويقول لى انى رائعة . أحس به رجلا : اعنى الفارس : الشىء الذى أصبح من الصعب العثور عليه الآن . مشكلة حكاية انقراض الرجولة هذه . شىء آخر يقلقنى خطر لى الآن : أن تعوقنى الدمن عن لذة الاستمتاع

بالخلاء . أن يحدث أن تعثر قدمى وأنا أرقص قفزاتى الواسعة فى الفضاء : تصطدم برأس دمنة ناتئة وتوجعنى أصابعى . أشد ألم يوجع : آلام الأطراف مستحيل الخلاء ؟

هناك بعد خاطر مرح : الحائط . اذا كان حقا مقوسا يمكننى اذن الانكماش داخله . قطعا . أنا متأكدة . فقط أن يكون مقوسا . وعندما انكمش سأتلافى الدمن . وتتخدر أطرافى . وذراعى . نعم . وساقى . ربما نام جسدى كله متكورا . جنينا كاملا . كم يجب أن يمر من الوقت حتى يتناقص الجنين : يعود بذرة . تسقط . تعود الأم عذراء . يستقيم الحائط .

٣ ـ مستعمرة جذام

مكان مسور . حصى كثير يفرش أرضه . أملس . لامع . لونه أزرق داكن لون ماء بحر فى ليل . لم أعرف كيف وصلت الى المكان . وجدتنى فيه . صحبة معى لم أعرف عددهم . كنت أعرف انهم صحبتى وانهم دخلوا معى . كانت هناك زحمة قبلنا . بشر كثير . يلبسون جميعا لونا واحدا . أبيض . ثوب فضفاض . يطيره هواء ساخن . رائحته قابضة . لم أدرك فورا معنى الرائحة . تخوفت منها . تخوفت من أطراف الأثواب الفضفاضة التى يطيرها الهواء . تخوفت أن تلمسنى . أن تنقل

الى الرائحة . احتضنت ذراعى الملم تفسى . سرت بحذر شديد على الحصى . خطر لى انه لا ينقل عدوى . لا شىء يمكن أن يعلق به . لا ماء يسقيه . لا ينزرع . لا يثمر . اطمأننت . فقط لو أتحاشى أطراف الثياب . أطرد تنفسى الى الخارج . لا أستنشق الرائحة . صحبتى لا تبالى . قلت لهم ما خطر لى . تخوفى كلــه . قلت لهم : قلت لهم : قلت لهم : صـحبتى لا تبالى . عيونهم تخترقنى وتعبرنى . لوحت لهم . لم يرونى . صرخت : ألم تلحظوا ... هذه مستعمرة للجذام .

نيويورك ١٩٦٥

حكاية آدم

دائما تحن حواء الى قضمة من التفاحة . وعندما تغيب الجنة تولد الانسانية . فى الجنة لم يلمس آدم حواء . كانت معه رفيقة خيال وحلم لا تبدو له ولا يبدو لها . آدم قانع وحـواء لم تقنع . أو انه لم يجرؤ وجرأت هى . أحبها ولكنها زادت عليه بأن رغبته . وفى الجنة لم يعرف آدم نفسه ولم يكن ملكا ولا ابليسا . ولم تكن خطيئة حواء ذنبها ولكنها عرفت من احتجاج ابليس انها وآدم غريبين لم يخلقا للعصمة ولكن للخطأ . وعرفت حواء ان الله خلقها من ضلع آدم أنثى . وخلق آدم من خطيئتها رجلا . وأنعم الله عليهما بعقابه أن يهبطا الأرض .

وعلم الله آدم الأسماء وأعطته حواء معنى الأسماء . وقنعت باستقلالها ببيت لهما تكون فيه وحدها سـيدته . وزرعت فى

حديقته ما شاء لها من التفاح ولم تعد بحاجة الى التهامه خفية فلقد شاء الله أن تتحول خطيئة حواء الى فضيلة تعمير الأرض

فرحت حواء فى صمت . وواصلت الزراعة واطعام آدم الذى لم يكف عن الافتخار كلما اشتد ساعده ورأى امتـــداد نفسه على بسطة الأرض . ولم يكف عن تأنيب حواء وجذب شعرها كلما تعب من عبء رجولته : فلو لم تكن حواء لما كان آدم رجلا ، لظل هانئا بلا عبء لا عليـــه الا أن يتحرك هيكلا من الطين فى جنة يحتقر نزلاؤها الطين . وما درى .

نيويورك ١٩٦٥

كلها وجهات نظر!

لأنه يكتب قصة أصبحت مناسبة تعارفنا مبررة .

قال لى تاريخ حياته . واتبهت طيلة حديثه . وقلت : ان دورى هو الفرصة القادمة للكلام. وخططت بدايتى بالحديث عن الرموش الصناعية لأن هذه طريقة سهلة لمعرفة مجرى ميـــاهه . وهاجمها فعرفت انه يتملقنى . وابتسمت ابتسامة عذبة وقلت له ان قصته سيئة جدا . ومددت يدى بعفوية متعمدة أنفض غبارا وهميا من على كتف بذلته التى تباع بشارع ماديسون مع تقاطع شارع ٦٧ بمبلغ ٦٧ دولارا و ٦٧ سنتا بعد تخفيض ثمنها الأصــلى الذى كان ١٠٥ دولارات . ورغم ان التخفيض تسبب فى انتشار السلعة الا انها ستظل وجيهة عندما ينزل من الطائرة ويستقبله

ذووه بمطار القاهرة . وقال انه يتقبل النقد لانها كلها وجهات نظر فوافقته . وسألنى ما هى القصة الجيدة فى رأيى ؟ فظللت صامتة . فأكد لى انه يتقبل النقد وأعاد التصريح بانها كلهـا وجهات نظر فوجدتها فرصة لسحب موافقتي وسألته بجدية اذا كان الرجل حقا يكره المرأة الذكية . فظل صامتا وظل يحدق فى جبهتى . وقلت له اننى أحب الأطفال فتنهد وكتب بقلمه على منديل ورق لم يستعمـل « المرأة التى تحب الأطفـال تحب الرجال » . فضحكت وأخذت منه القلم وكتبت : « المرأة التى تحب الأطفال تحب نفسها » . رفع رأسه وقال : « نعم : الرجل حقا يكره المرأة الذكية » .

أصبحت مناسبة افتراقنا مبررة .

نيويورك ١٩٦٥

جلستان .. أو روضة الورد

قطعة من كتاب الصديق « البير كامى » أعلقها فوق رأسى منذ ثلاثة أعوام . القطعة تقول باختصـــار ان ما يعطى قيمـــة للترحال هو الخوف . هذا الخوف الغامض الذى ينتابنا عندما نسافر بعيدا عن بلادنا ويملؤنا بالرغبة الملحة فىالعودة للاحتماء بما تعودنا عليه . هذه الحقيقة هى فى الواقع أول المنافع البديهية للسفر ـــ فهذا الخوف ينبه حساسيتنا الى درجة قصوى تجعلنا نهتز الى الأعماق من أقل لمسة تمسنا ويمكننا عندئذ التشوف الواضح لأدق الأشياء . وعلى هذا فلا يجب أن نقول اننـــا نسافر للمتعة ، ليس هناك أى متعة فى السفر . ولكنه فرصة للامتحان الروحى . المتعة تأخذنا بعيدا عن أنفسنا مثلما تأخذنا الغواية بعيدا عن الله والسفر يعيدنا مرة أخرى الى أنفسنا .

لو جلست ألف سنة لأعبر عن تجربة سفرى التى دوختنى حول اصبعها ست سنوات الى الآن لما أمكننى أن أخرج بأصدق مما لخصه « كامى » نيابة عنى . وعنـدما أضيف الى كلماته أقول : ان المسافر المخلص هو الذى يعنى بملاحظة ما يحدث له ويرحب به والا فقد مصباحه وضل ضلالا شديدا .

والملاحظ انه كلما توغل الانسان فى تجربة سفره وعاشـها كلية بلا افتعال وواجهها كما هى بلا تزوير أو هروب ، نجد ان تعقيبه الغالب على الحياة هو الصـمت البليغ أو ندرة الكلام والتردد فى التعبير والعجز التام عن اصدار الأحكام . وعندما يكون المسافر فنانا أو فيلسوفا أو حكيما أو متصوفا ـ والواقع ان المسافر الحق لابد أن يكون أحدهم ـ نجد انه يستحيل عليه أن يحكى عن سفرته أثناء طوافه فهو مشغول بالرؤية واعادة النظر وجداله الداخلى مع اعتقاداته الراسخة عن نفسـه وعن الآخرين والأشياء . ومن الآراء الرائجة ان غياب المسافر يسلخه عن ثقافته أو لغته أو ناسه أو أحاسيس بلده . والعذر لهذا الرأى هو البلبلة التى أحدثها بعض الذين قطعوا تذكرة الرحلة ورحلوا ولكنهم لم يسافروا . أما الذين تشربوا بمسام جلـدهم روح ثقافتهم لم يمكن لهم أن ينسلخوا عنها لأنها تلاحقهم فى أعماق كل ثقافة انسانية أخرى .

وأنا أجد كثيرا من الصدق فى جملة سمعتها من أحد أصدقائى الفاهمين ــ قال : ان الذى يحس بخلجات فن أم كلثوم لايمكن أن يسىء فهم بتهوفن وبالعكس ــ بل ان المدهش ان الاغتراب يتفجر منه دائما الرغبة العارمة فى الاقتراب . الاقتراب الذى ربما لم يشعره المسافر قبل مبارحته أرضه : الأغانى التى لم يخطر له انه سيذكرها تعوم وتطفو ويغدو لمذاقها طعم عذب لم يدركه من قبل . القيم أو التقاليد التى رماها يوما بالرجعية والتأخر والتعسف ــ بدت لها زوايا جديدة تبررها بل وتحتمها فى أكثر الأحوال وتوضحت ملامحها اللامعقولة تحت ضــوء الادراك الجديد لتصبح معقولة جدا ــ فالواقع ان الانسان لا يفهم نفسه الا برؤية آخرين ــ ولا يعرف بلده الا برؤية البلاد الأخرى . فالتجوال ليس محاولة لاكتشاف العالم ولكنه طريق لاكتشاف المسافر بلده وأن يجد نفسه . وشخصيا أعتقد ان الغربة منحتنى أشياء كثيرة ثمينة ــ أهمها انها أدبتنى فأحسنت تأديبى. أحيانا بالعصا وأحيانا بهراوة غليظة ودائما بالحرمان . وكل مرة كنت أسمع فيها قرقعة طحن عظام غرورى كنت أحس بالتطهر والحمد الكثير فالانسان ــ لاحظت ــ مسكين ضعيف ســهل جدا أن يموت قلبه ويترهل حسه . وبالتجربة رأيت ان الحرمان دواء أكيد المفعول لاحياء القلوب الميتة والقضــاء على أنواع

الترهل المختلفة . عندما لا يصبح هناك شيء اسمه « أمر مفروغ منه » يعرف الانسان ان عليه أن يقدر كل شيء وينبهر لكل أمر . ولا أستبعد أن تستبد بي ــ عندما أعود ــ لوثة تجعلني ــ كلما صحوت كل نهار ــ أتلقى أمي بالأحضان في لهفة شديدة انبهارا للحقيقة العجيبة انها بجانبي وأراها كل يوم ــ وقد أصابتني بالفعل لوثة تأثري الشديد ــ لدرجة البكاء أحيانا ــ كلما صادفني انسان مهذب يمكنه أن يتكلم خمس دقائق دون أن تبدو منه كلمة تخدش الحياء العام . فالذي يبدو أن التهذيب أصبح أحد مظاهر الترف المحكوم عليها بالانقراض . وهذا في الواقع ظل غائبا عني لم أفطن اليه الا بعد أن تنديت خجلا من موقفي عدة مرات كأهل الكهف أشكو من قلة التهذيب وأيقظتني ضحكات السخرية وهزة الرأس تعجبا من شكاياتي الهايفه . وأوقفت شكاياتي ولكنني لا أستطيع أن أوقف بكاء الاشتياق كلما سنحت لي الفرصة برؤية واحد من الجنس المنقرض .

وفي الآونة الأخيرة ظهرت على بوادر لوثة جديدة في غرامي بالغرق في الكتب الصفراء . الكتب التي ــ لغباء ما ــ لم أقرأها ــ كما كان الواجب ــ منذ أمد طويل : كتب تراثنا الاسلامي العربي الشرقي القديمة . من ألوم ؟ ألوم جهلي ؟ أو ألوم مناهج الدراسة والتعليم أو كتاب الطليعة الشابة الذين

كنت ألتهم حروف مقالاتهم فى صـــحف ومجلات زمانى الذين حولوا بصلتى غريبا تاركة حولى خزائن بيتى يعشش فوقهـا اليمام . لم يقل لى أحد منهم مثلا على كتاب « أطباق الذهب» لشرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله المغربى الأصفهانى ــ ولولا الصدفة المحضة لما عرفت هذا الكتاب ــ وان كانت معرفتى به ما زالت ناقصة . أعرف ان الكتاب طبعة أولى سنة ١٩٣٢ روجع على نسخة خطية بدار الكتب المصرية وطبع على نفقة محمود توفيق الكتبى بجوار الأزهر . ولكن متى تم تأليف هذا الكتاب؟ من هو شرف الدين ؟ ما هى مؤلفاته الأخرى ؟ أين عاش وأين مات ؟ لم أعرف وأين لى بمن يدلنى عسى يزايلنى الضجر ؟ ورغم كل هذه الاعتبارات الا أن لذتى بالـكتاب كانت غامرة سقت اليابس داخلى .

فى مقدمة كتابه ــ أو مجموعة المائة مقالة « أدبية وعظيـة حكيمة » يقول شرف الدين انه يسلك مسلك « الزمخشرى » فى مقالاته المسماة « أطواق الذهب » ولكنه يعترف بتواضع شديد بعجزه عن بلوغ مبلغ « الزمخشرى » فيقول : « .. أنا أحكى لك حالى وحاله : هو يقول وأنا أتقول ، وهو أكحل وأنا أتكحل . قمرى نخشبى ، (نخشبى منسوب الى نخشب وهو بلد كان أهله يصورون القمر على الثيـاب) ، وفرسى

خشبى ، والضيغم ، (الأسد) المجصص غير صائل ، وفرس الشطرنج ليس بصاهل .. » (أطباق الذهب ص ٥) . ولأن أخلاقية القرن العشرين لا تؤمن بالتواضع فقد أمتعني جدا مراجعة حكمة القدماء ووجدت أنها جديرة بالاهتمام .

أوصلني الاهتمام الى « جلستان » أو روضة ورد الشاعر العظيم سعدى الشيرازى الذى ولد سنة ٦٠٦ هـ وتوفى بعدها بتسعين عاما (هذا حسب حسبتى يوافق القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلادى) والذى ساعد على استمالة شهيتى أكثر وامتصاصى لكلمات الكتاب ومضغ ورقاته أستاذية المترجم « محمد الفراتى » الذى نقل الروضة من الفارسية الى عربية ناصعة رصينة ــ (وطبعة الكتاب حديثة ، الأولى من سلسلة روائع الأدب الشرقى ــ المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٦٢) وحديثى هنا عن « سعدى » وكتابه «جلستان» يتلاءم تماما مع بداية هذا الكلام وما دار حول السفر والمسافرين ، بل لعله من الأجدر أن أعترف ان قراءاتى فى هذا الكتاب كانت السبب فى صيدى لخواطرى التى راودتنى دائما فى تفسير حالة السفر عند المسافر وتفاعله داخله ، فالذى عرفته ان سعدى تشرد كثيرا بسفراته العديدة بين شرق وغرب المنطقة الاسلامية ، وكانت نقطة بدايته هى سفرته الأولى الى بغداد جمرة الثقافة

العربية الاسلامية فى ذلك الوقت ــ والمشهود أن ثقافة سعدى العربية واتقانه لغتها تفاعلت واندمجت تماما مع حقيقته الفارسية الى درجة تحيرنا اذا ما أردنا أن نقرر ماهية عبقريته اذا كانت فارسية أو عربية ولذلك فأنا أوفر الحيرة بتحــويل الأمر الى الثقافة الأم التى هى الثقافة الاسلامية وفروعها .

كل بلد حل به « ســعدى » توغل فيه وعاشر على السواء علياء القوم والدهماء . واستقر فترة بمدينة حلب ولكنه تركها هربا من زوجته الحلبية التى آذته بسلاطة لسانها وعدم تهذيبها وعايرته بأن أباها أعتقه من أسر الفرنجة له فى القــدس وفداه بعشرة دنانير ــ وغضب « سعدى » وقال انه أوقعه بعد ذلك فى أسرها بمائة دينار . وعاد من ترحاله الى بلدته شيراز مهلهلا من شدة وطأة الادراك والمعرفة والاحساس عليه وقعد فى بيته معلنا الصمت والعزلة : « .. رأيت أن أستقر بمجلس العزلة رأضم ذيل ثوبى عن محاذير الصــحبة وأمحو من صحيفتى مارقمته من الهذيان وجزمت ألا أنبس ببنت شفة ولا ادعى بعد ذلك المعرفة » (ص ١٥ ــ جلستان) .

ولكن واحدا من أصدقائه أصر على حواره وعلى كسر عزلته قائلا له :

« اذا ما دعاك النطق فانطق وان يكن
سكوتك بين النـــاس من كرم الخلق
يعكر صفو المرء أمران : فاعجبن
بنطق بلا داع ، وداع بلا نطق »
(ص ١٧ ــ جلستان) .

وعلى حد تعبير « ســعدى » : « بحكم الضرورة جارية بالكلام » . وخرجا سويا يتحاوران ويستمتعان بنزهة ربيعية بين حدائق الورد ــ وانحنى الصديق يقطف ويجمع ما أعجبه من مختلف الزهور فتنبه خاطر « سعدى » وقال ان باستطاعته أن يصنف كتاب « جلستان » ، روضة ورد لا يذبل أبدا يجمع فيها المختلف من قطف خبرته ورؤيته وعذابه .

« الباب الأول فى سيرة الملوك ، الباب الثانى فى أخلاق الفقراء (الدراويش أو الصوفية) ، الباب الثالث فى فضــل القناعة ، الباب الرابع فى فوائد السكوت ، البــاب الخامس فى العشق والشباب ، الباب السادس فى الضعف والشيخوخة ، البــاب السابع فى تأثير التربية ، والباب الثامن والأخير فى آداب الصحبة»

ولم يكذب « سعدى » فمنذ اللحظة التى خطوت فيها داخل روضته وأنا سكرانة بالشذى لا أحاول الخروج ولا أكف عن التمرغ بين أحواض الورد الثمانية ــ وان كنت ــ لميل طبيعى

ـ أطيل وقفتي عند « باب العشق والشباب » ـ والحاجة ضرورية ـ أستعيد « باب فوائد السكوت » .

والقارىء الحديث المتفاعل مع الحركات المعاصرة فى الشعر والفن والأدب والمسرح والفلسفة ـ أجدر الناس بالتجاوب مع هذا التراث الغالى من الشرق الذى ينبض بخصائص أسس كل هذه الثورات الحديثة التى ترتد الينا الآن من الغرب . وأنا لا أبالغ ولا أهرج عندما أؤكد اننى رأيت فى الروضة « اليوت » و « جويس » و « بيكيت » و « برخت » و « ايونسكو » و « سارتر » و « كامى » وحتى « كارل ماركس » رأيتهم جميعا هم وغيرهم تلامذة صغار بالبنطلون القصير وقلت لهم : « هاى ! » وقالوا لى : « من أنت ؟ » قلت : « أنا ابنة صاحب الروضة » . وضحكوا فضحكت فى جذل .

ولعل أحلى ما يعجب القارىء الحديث وأعجبنى ـ هو انطلاق الكتاب من قيد القالب « الفورم » (١) ـ القيد الذى ابتدعه الفنان ووقع فى حبائله ويحاول الفنان الحديث الآن التخلص منه بعنت شديد ـ ولكن سعدى حققه بجرأة وعفوية لم

---

(١) من المآسى ان اضطر الى ترجمة التعبير العربى الى الاجنبى لكى اضمن عدم التباس فهمه ، وهذه قضية تغيظنى ولكنى سأؤجل صراخى مؤقتا حتى لاينشتت ما أود ان أقوله الان .

يصلها بعد الفنان الحديث ــ فالكتاب ليس رواية وليس قصة ولا ديوان شعر أو مجموعة مقالات او عظات أو رسائل .

ولــكنه مجموعة منوعة من كل هذا قالبها الوحيد انسجام تلقائى لقوالب فنية مختلفة تعبر كلها عن موضوع واحد يشمله الباب . وربما كان تكثف المعانى والقضايا والمعــارك الثورية والأخلاقية التى كانت تزحم صدر سعدى وتثقل قلبه هو السبب فى فرض هذا الشكل من الاخراج عليه ، فالتكثف والزحمــة يورثان الفنان التوتر والقلق والتململ من الشكل الواحد أو الوقوف عند زاوية واحدة ، وعليه تتولد الرغبة فى الهرب من كل التزامات القالب لينشغل فقط بما يود أن يقوله ــ ونستطيع لذلك أن نحس بدفء أو سخونة أنفاسه مهما تراكمت القرون فلا شيء يكتم أنفاس الفنان ويجمد تدفقه الطبيعى مثل القوالب مهما كانت جميلة أو متقنة الصنع ــ وفى هذا نجد سعدى يضع أمامه الموضوع الواحد مثلا « العشق والشباب » ــ ويبدأ فيه بـ « حكاية » تستغرق ثلاثة أسطر ــ ثم تنتهى . ثم يتوسط السطر عنوان « قطعة » بيتين من الشعر ، ثم تنتهى ــ وتستمر المقتطفات كصور السلبيات « سـلايدز » تنتقل عناوينها بلا تخطيط واضح ــ كأنها صدفة ــ « حكاية » ، « بيت » ، « بيت شعر عربى الأصــل » ، « حكاية » ، « قطعة » ،

« رجـز » ، « رباعيـــة » ، « لطيفـــة » ، « نظـم » ، « مطابيـــة » وهلم جرا ـ وكل جزء يختلف طـوله أحيـانا صفحة وأحيانا سطرا أو نصف سطر ـ ويتجسم لنا الموضوع بلا لحظة ملل أو توقف .

وقد ضحكت كثيرا وصفقت بيدى فى نهاية الكتاب عندما أشار « سعدى » الى من عرف انهم يخطئون فهم طريقته ومعانيه ولن يدركوا الرؤية المستترة قائلا : « كاد عديم النظر والبيان يكون طويل اللسان قائلا : ليس من عمل العقلاء اذهاب لب الدماغ باطلا أو تناول دخان السراج بغير فائدة تجتلى ، ولكن أولياء الله الذين آراؤهم لامعة لا تخفى عليهم من وجوه هذا الكلام الدرر الساطعة بالمواعظ الشافية التى خرجت فى سلك العبارة مع اللطافة ، والمـداواة بمر النصيحة المختلطة بشهـد الظرافة لكيلا يسأم طبع المخاطب الملول ولا يكون محروما فى دول القبول » .

وكما ترى : يمكن للفنان الحديث أن يستعير هذه الفقرة من « سعدى » بكلها عندما تعوزه البلاغة فى اقناع « عديم النظر والبيان » فى عصرنا : الذى لا يعرف معنى تكشف القضـايا والتوتر الداخلى وتقلص التعبير أمام ضخامة وحش الادراك .

ـ ودمتم ـ

نيويورك ١٩٦٥

أمتار من العذاب الفاخر

هـذا الشهر المبارك أنهيت غربتى وعدت كاسبة صنـاديقى الثقيلة معبأة بالحزن العظيم وأمتار العذاب الفاخر . نظرت فى مرآتى القديمة فضحكت لى . وجدتنى عند وعدى ليلة سفرتى البعيدة : « لن أكبر » . قلت لهـا وفعلت وضحكت وظهرت فلجة أسنانى وكل وجهى صار دائرا فكها . لعلنى لم أبرح — ساورنى خاطر — أو لعلى لبثت يوما أو بعض يوم — لعلى تخيلت الأمر كله . لعلى كنت هنا دائما أو لعلى ما زلت هناك . هل تفرق كثيرا ؟ ما دمت عند وعدى لمرآتى القديمة لا أكبر وفلجة أسنانى تبدو كلما ضحكت ووجهى دائرة فكهة . ونزلت السوق :

نزلت بورقى الى المدينة أنظر أزكى الطعام . أمسكوا ورقى

وسألونى : « من أنت ؟ » تلطفت وقلت أحاديثنا القريبة . أنكرونى : « من أنت ؟ وأى الأحاديث هذه ؟ » ألقيت بقميصى على عيونهم وقلت اسمى . تثاءبوا : « نعم . نعم . كانت هنا منذ زمن وخرجت تبحث عن سيدنا الخضر » .

— « وجدته » .

— « صاحبتيه ؟ » .

— « وجدته وصاحبته ولم أسأله أى سؤال »

— « تعلمت اذن كل شيء » .

— « لم أتعلم .. أحسست » .

— « الخضر معلم » .

— « الخضر تجربة » .

— « سمى لنا أسماء البلاد » .

— « لا أذكر البلاد » .

— « قولى اذن اسم الملك واسم الغلام وأصحاب الكنز» .

— « الملك كان ظالما والغلام كافرا وأصحاب الكنز يتامى» .

— « صفى لنا الكنز » .

— « تراب » .

— « تبالغين » .

— « صحيح ؟ غير متأكدة » .

— « لماذا لم تسألى ؟ » .

— « الخضر لا أسأله عن شيء » .

— « أنت غامضة : حدثينا بأسلوب واضح بسيط . كل من رأى الـكنز وصفه وبعضهم جاء بقبضة منه » .

— « أو لم تلحظـوا أنى كنت مشـغولة بالخضر ؟ كنت أرقد عند قدميـه حتى لا ينسلت منى ويضيع وقد بنى فوق الـكنز جدارا » .

— « لماذا الجدار ؟ » .

— « الجدار حتى لا يموت القلب » .

— « من عند الكنز تعودين وتتحدثين ما زلت عن القلب ؟ عن العين تحدثى ، عن الفم وعن البدن » .

— « حوارنا محبوط . القلب مشغوليتى » .

— « الكنز والكنز والكنز » .

— « وا أسفى . بقيت عند وعدى لماذا تخذلوننى ؟ » .

— « افتحى الصناديق » .

— « لا تشد الغطاء هكذا . برقة » .

— « القلب والرقة : هل هذه كل حصيلتك من الخضر ؟ » .

— « لا . الصناديق مليئة » .

— « هدايا ؟ » .

ـ « كلها » .

ـ « لى ؟ » .

ـ « لك هذه الحكاية : عن غرفتى الرطبة تحت الأرض . عن المكان بلا أبواب . عن صوت مواسير المياه الصدئة وأزيز جهاز التدفئة وملاءات السرير الباردة القديمة الممزقة ودموع الطفلة العنيدة منكفئة فوقها وصوت مسز هيوكيل صاحبة المنزل بشارع مسيسبى بقرية ـ لورنس كانساس ـ توقظنى لكى أعتنى جيدا بمسح الأركان ـ وصنجاب يطل على من شباكى بمستوى الحديقة . يدى لا تستطيع أن تصل الى قضبان الشباك لتمنحه جزءا من خبزى الجاف » .

ـ « ولماذا رميت بنفسك فى البئر ؟ » .

ـ « لأن الخضر أوصلنى الى أن خلاصنا من الخوف والفزع سبيله الوحيد أن نضع رأسنا فى فم الغول » .

ـ « اذا التهمك ؟ » .

ـ « تخلصت واذا لم يلتهمنى تعلمت ألا أخاف » .

ـ « وهديتى ؟ » .

ـ « لم أتته من غزلها » .

ـ « أرينى الخيط » .

ـ الخيط من جدائل شعرى وشعرك : من جدائل شعر

المرأة المحلول » .
ـ « والمرأة هناك ؟ » .
ـ « الخضر أوصلنى الى أن (هناك) = (هنا) ؟ » .
ـ « ماذا تغزلين ؟ » .
ـ « حكاية من حزنى (الحزن الحر) أوصلنى اليه الخضر أيضا فأوصلنى الى آدميتى وأحسست ادراكى للأشياء حولى » .
ـ « كل الصندوق حكايات ؟ » .
ـ « لا . هذه مأساة . مأســاة المؤمن الحقيقى عندما يجد دينه ألعوبة فى يد تجار يســتجدون الرزق به . وثورة المؤمن المخلص على المرتزق . أوصــلنى الخضر الى التمييز بين المؤمن والمرتزق » .
ـ « تتكلمين كأنك عيسى بن هشام . حدثينا عن المأســاة اذا كانت من واقعنا » .
ـ « رائع . هذا خطاب ألقيته على جدران غرفتى سنوات صاحبت فيها الخضر فى مكاتبنا العربية بالخارج ويبدأ :
أيتها الجدران والسقف والأفكار المعلقة :
لدى عدة أسئلة . أحب أن أعرف من المسئول عن مناقشــة مكاتبنا الدعائية العربية بالخارج . مناقشة جدية . الحل ليس أن أسأم وأخبط رأسى فى الحائط ثم أعود وأبتسم وانتهى الاشكال.

المشكلة ليست مشكلة قرفى وحده . ليست مشكلة وقتية تحل بالانتقال من مكان الى مكان . الشىء أعمق . لو كان الأمر يتعلق بحالة شخصية لما هم الأمر . ولكن لا أستطيع أن أتحمل التبديد أكثر . الارتجال أكثر . الركاكة والضحالة والفزع العظيم للتخلف المطلق فى منطق الأشياء .

ان سوء الاختيار يتولد منه دائما عدة اساءات اختيار . وعدة اساءات الاختيار هى الآلة الحادة المشرشرة التى تذبح كل فرص نقل امتدادنا الثورى الى مكاتبنا المفروض انها تقوم بنقل وتفسير وبث نبضنا الجديد .

اننى أرى تناقضا شديداً بين مايجرى ويحتدم فى بلادنا وبين الصورة الخارجية لنا . كثير منا يعرف أكثر مما أعرف ان الاشتراكية ليست وليدة يوم وليلة وليست مجرد نطق كلمات واشهار علنى وجملة يختتم بها كل حديث تليفزيونى . وان بلدنا اشتراكى ليس معنى ذلك ان كل من به — ومن بينهم «باشوات وبهوات وأميرات وأمراء واحتياطى سابقين » — كلهم صاروا اشتراكيين بجرة قلم — واستسلامهم ليس معناه اقتناعهم .

والاشتراكية ليست نشرة تقرأ ولا تعليمات تنفذ — ولقد عرفت هذا لا عن طريق القراءة ، ولكن عن طريق ضميرى وعذابى ومشوارى الطويل الذى سرته وحدى لأصل الى انه

اذا كان الطمـع وحب التملك والتميز على الآخرين والغزو ميولا بشرية فهذا ــ مجرد انها ميل طبيعي بشرى متأصل . أدعى ما يدعونا الى التحكم فيه وضبطه عن طريق حارس خارجي هو الاحتياطات الاشتراكية . وهذه الاحتياطات الاشتراكيـة ليست احتياطات خاصة بالاقتصاد فقط والمال والمادة . فالمشكلة الاقتصـادية قد تكون احـدى ظواهر المرض وليست المرض نفسه .

وأنا لا أريد أن أتهم أحدا بالتوانى أو الخيانة أو أى شيء ولكن : ببساطة هناك أناس لايمكنهم القيام بالأدوار المعهودة اليهم لأنهم غير مؤهلين لها . وليس الخطأ فى انهم يسلكون ما يسلكون . ولكن الخطـأ منا أن نتركهم يقولون فى مجالات يستحيل عليهم ــ مهما جاهدوا وافتعلوا ونقلوا وغشوا ــ أن يتواءموا مع نسيجها . بيننا وبينهم اخدود كبير . كبير .

لماذا ما زلنـا مصرين على الوقوع فيه ؟ هؤلاء أموات من القرون الماضية بجثث حيـة ــ لابأس آن يظلـوا يتشمسون ويمضـغون جفاف أحلامهم وخوفهم وبوار حوارهم فى نادى الجزيرة . اتركوه سجنهم حتى تسقط جثثهم أيضـا وتوفر لنا بعض الخبز والأرز واللحم ولكن لا يجب أن نجرجرهم وراءنا فى قفزاتنا السريعة ، فجثة الميت ثقيلة وكريهة الرائحة . لا شيء

يساوى جريرة أن يعبر باسم ثورتنا العربية ما يؤذى ثورتنا العربية .

ولا أعنى بالثورة المعنى السياسى فقط ، ولكننى أقصد أكثر أسلوبنا وسلوكنا ومفهومنا الجديد الذى يتلاءم مع ظروفنا وحماسنا وعمرنا .

وكم هو عمرنا حتى ننساه سريعا ؟ »

ــ « وبقية الصناديق ؟ » .

ــ « قادمة . قادمة . قادمة . بارك الله فى الخضر . »

القاهرة ١٩٦٦

وتريات

حزن مزنوق لونه أزرق متكور صلب كحصاة مرشوقة وسط القلب . شارع سليمان باشا الوحيد الذى أتعرف عليه باسمه . أعبره وأسير فى شارع لا أدرى هل هو شريف أو عدلى أو عماد الدين . أيهما قصر النيـــل وأيهما صبرى أبو علم . كل شارع مألوف لدى حتى اختلطت عندى الأسماء . لكنها مازالت قاهرتى التى لا أجد غيرها صحبة . مثل اليوم ليس غير أن أسير فيها لأتداوى . أسيرها وحدى حتى لا أسكب حنقى كلمات تثيرنى ولا أبلغ بها شيئاً . مكظوم . كظيم . كاظم . منكظم . تصريفات لغتنا الجميلة . فقط لأننى أسير وحدى . لكن العناوين البلهاء لا تتركنى . هذا الصباح لم أتطلع الى الصحف : لم يهن على . أمس قرأتها وقرضت أظافرى وكرهت نفسى لأننى

كنت على وشك البكاء . لم تبق سوى أظافر القـدمين . لن يمكنني . مقلاة . كيس لب بثـلاثة قروش . لم يعـد ممكنا أن أقرأ الصحف بدون كيس ملىء باللب . مثل اليوم ليس غير أن أسير فى شوارع القاهرة لأتداوى . السير واللب . الحصاة مرشوقة لا تتزحزح .

جيفارا حولوه أسـطورة . قذفوه الى أعلى حتى لاتلمسه أيدينا : أصابعنا مقروضة الأظافر . نحن العاديين أردناه معنا عاديا يسير فى الأسواق مشقوق الكعبين تتمثله وتتبعه . جيفـارا : اكتملت المؤامرة . جعلوك أسطورة . كل يوم أتحقق ان فيتنام شعب على الأرض : لا يقرضون أظفـارهم ولا يضطرون الى اللب . آثم يا فيتنام كل من يحاول أن يجعلك محنوى ملحميا فى اطار فنى : فيتنام لست معجزة : أنت انسان . أنت انسان .

***

هل تخشى امرأة أن تقاوم منتهكها حتى لا ينفرط عقـدها اللؤلؤ الثمين أو ينكسر سوارها الماسى ؟ فليتحطم كل شىء حتى لايصبح هناك غال معوق يضعفها : يرخصها . لتكون فقيرة : حرة للمقاومة : قوية بدائية طهورا . ولتشترى بعدها حليها .

***

العريف توفيق ذهنى خليل حجاج : الجنـدى المأسور رفع

صوته وبيده قطعة حجر . قتلوه نعم : لـــكن بقى انه : رفع صوته وبيده قطعة حجر . ماذا كنت أفعل أنا وقتهـــا ؟ هو فى الأسر وأنا التى هنا بالقلعة ؟ قطعة الحجر أو كيس اللب ؟

***

الجندى المأسور المقتول قال بوضوح ما لفته أوراق الصحف : « ولو بقطعة حجر .. لكن لابد » .

لم يفـــكر لكنه فعل . عنى قال : لا يجوز للحزن أن يظل مزنوقا مخزونا أزرق : أطلقوه أحمر متدفقا دافئا . الجنـــدى المأسور المقتول : اختار أن يموت حتى لا يذوى .

***

اعبر : قف . الاشارتان معا : اللونان معا : الأخضر والأحمر. أعبر من خلف العربات . بدون جهاز الاشارة أستطيع أن أتحين فرصة العبور بين بطء عربة وسرعة أخرى .

***

بأول شارع الهرم : أوركسترا القاهرة السيمفونى : حفـــلة البروفة مجانا وأكثر صـــدقا . بيتهوفن كان شعبيا : الحواجب المرتفعة تجرد الشعب من أبطاله . سيد درويش أصـــبح قاعة وابنه : دمه : حافظه وراويه : أصبح نقطة لا ترى فى أقصى يمين صف الكورال الأخير . سيد درويش : أريدك الآن . الآن .

الآن . لو خرج ابنك من الصف وغنى وعلمنى « أنا المصرى » . محفور فى قسماتى لكنى لا أعرف كيف أردك . فتلوك حبا أم أحبوك قتلا ؟ محاورات لغتنا الجميلة . حنطوك مثل جيفارا وتحولت أسطورة وأنت ما زلت دما ولحما وكعبين مشقوقتين مملوءتين طميا وماء . سيد درويش سيد درويش . سيد كمشيش .

***

الاقطاعى رفض عناوين الصحف صباح اليوم من « العام ١٩٥٢ » صاح : « بكره الخواجه ييجى يأدبكم » . الاقطاعى سقى الشربات من أجل العدوان وأمله فى « العام ١٩٥٦ » . عبود باشا قال فى «العام ١٩٥٦» : «احنا مش قد الانجليز » . طنين . طنين . طنين . طنين الذين يأبون أن بائعة الذرة المشوى تقضم كوزها وتغنى لطفلها النائم على التراب : « هناك أمل » . ألم يمت عبود باشا بعد ؟

***

فى البدء كان الرقص . وكان زوربا يرقص ليبكى . رضا ارقص . ارقص — ارقص فى بهو الكرنك وعلمنى كيف أنتزع الحصاة وأبكى وأمد ذراعى وأحرك كتفى وأوسع خطوى وأقفز حرة مرنة عزيزة . إبعثنى من داخلى وعلمنى نفسى . دع المغنى

مرة أخرى يرص موالا عن وجهنا الضاحك المتألم وعن البدن الأسمر المجروح . لا يرقص مثل البدن المجروح : ارقص يا رضا . ارقص حزنى الأزرق .

القاهرة ١٩٦٧

ماري أنطوانيت دي بنتاجون

ماري انطوانيت ما زالت تعيش
قابلتها تستعمل المقصلة
لتقطيع الخبز .
واللحم والأفكار .
(ويقال أحيانا مجموع الانسان) .

***

ماري انطوانيت
ناعمة وجميلة .
(بالمفهوم الليبرالي) .
وتعني بحاجبيها .
(أي عقلها بمفهوم الفن الحديث) .

حاجباها مشرقان .
(مثل اشراق الفرنسى
وهو ينطق الكلمات البذيئة
والانجليزى وهو يحتكم الى القاموس
ليتأكد من خطئه
والألمانى وهو يكتب « أنا آرى »
بحروف تقرأ : « أنا مذنب ») .

***

حاجبا مارى انطوانيت
معقوصان تحت عينيها .
(وأحيانا فوقهما
عندما تريد أن تتخفى
وتدعى أنها قتلت
فى الثورة الفرنسية
مع ان الثورة الفرنسية
كانت ثورة بيضاء
لأنها لم تقطع
سوى الرؤوس .)
حاجبا مارى انطوانيت

مزججان بالزبد
(مثل شرائح البقلاوة) .
وعيناها بذرتا مشمش .
وفمها كسارة .

***

ناعمة . ناعمة . آه
مارى انطوانيت دى بنتاجون
وأنت ترتبين فى حنكه
ـ كأنك تعزفين سوناتا البيانو ـ
صناديق هدايا :
قطع اللحم مع الخبز مع الفكرة .
(مغلفة بصحائف الاعلان
ـ ويوزع مجانا فى مقر الأمم المتحدة
باسمه الـكامل :
« اعلان حقوق الإنسان » .
الانسان الذى مات .
يوم عاشت : مارى انطوانيت) .

القاهرة ١٩٦٧

قطع ذهني
أو غير ذلك بالتحديد

كنت أشعر بجسمي منتفخا ممتلئا بالماء ولكنني لم أظن ان هذا سببه حالات القطع الذهنى التى تنتابنى خلال حديث متواصل . قلت للطبيب : « تحدث مثل انقطاع التيار الكهربائى » . قال الطبيب : « التحليل مفيد » . وأعطانى ورقة للمستشفى وضعتها فى مفكرتى الصغيرة وعندما خرجت تملكنى ضيق وعصبية وتذكرت اننى فاتنى اعلام الطبيب بخلية النحل فى الجزء الخلفى برأسى .

نويت السير لكنى أوقفت سيارة أجرة بعد خطوتين .

ــ « لا اله الا الله . عالم كفران » .

النحل دؤوب فى مؤخرة رأسى . الخروف ينطح رأسه بالجدران لأن الدود يملأ منخاره ورأسه . هذه حقيقة علمية أو

سيرة شعبية . على وشك أن أنطح رأسى بزجاج نافذة العربة. تبلدى أثار حساسية السائق :

ـ « النـاس فاكره اننا بنصطادهم بالكلام . عالم مرعوش صوابع ايده خايفه من بعضها » .

النحل يحمل رأسى ويحلق ويحط على سطح ماء . تماوج الماء أحسه هزات رتيبة متتابعة . التماوج يهدهد رأسى بالنعاس. أجفانى ثقيلة أحاول أن أرى من خلالها الطريق . النوم بئر أسـقط فيه كل يوم وأصحو بعد أن آسير مشوارى متسلقة الحبـل من القاع الى السطح . كل صبـاح أجىء من السفر المتعب . البئر جداره زلق وقاعه وسادة رخوة من ماء أسـود مختلط بالطحلب المترسب والفطريات القديمة .

« كل صباح أتلمس جسمى المنتفخ بالماء كأنه جثة طافية » . هذه جملة تشبه أدب الشفقة على النفس . ولكن أيتها القاهرة المتربة العزيزة ألا يحق لك الشـفقة على نفسـك أنت أيتها الطافية مثلى فوق سطح العرق والرطوبة بلا اهتزاز . أحلم كثيرا انى أشهد محاكمة والمحكمة فى غرفة مثل القبو لا شىء فيهـا يربطنا بزماننا غير ساعة حائطية تجمدت ذراعاها تشير الى رقم بلا دلالة . الذى فى القفص غول يجلس منتعشا مسيطرا يحاكم ضحيته المقتولة . المحامون يختالون فى روب المحاماة الأسـود

يتقاذفون جسدا فيما بينهم نهشا وتمثيلا . محام منهم يقترب وجهه كثيرا مثل اللقطة القريبة فى السينما : أسنانه تبرز وفكه الأسفل يبدو ضخما متدليا وهو يزعق . يشملنى الحلم باحساس من المعاناة والحصار وأصحو منه مرهقة تماما . طريق المقابر القديمة أجمل طريق جديد بالقاهرة . القاهرة . كايرو :

ــ « هل أنت من كايرو ؟ » .

ــ « نعم .. أنا من كايرو » .

ــ « كيف تقولين كايرو بالعربية ؟ » .

ــ « القاهرة » .

ــ « الكخاهرة ؟ » .

ــ « القاقاقاهرة » .

ــ « الكخا . . . » .

ــ « قا . . . » .

ــ « كخا . . . » .

ــ « قا . . . » .

ــ « كخا . . . » .

ــ « قا قـ قـ قـ » .

ــ « الكخاهرة . . » .

ــ « تقريبا ! » .

ـ « كيف تقولين نيويورك بالعربية ؟ » .

ـ « نيويورك » .

ـ « لكنها ما زالت انجليزية ؟ »

ـ « نعم .. نحن ننطق الأسماء كما هى ! » .

ـ « كم عمر القاهرة ؟ » .

ـ « . . . ألف عام » .

ـ « يا للمسئولية ان تكونى ابنة لأم عجوز » .

ياأمى الحبيبة أفيدونى عن الأحوال . حلمت أمس حلما مزعجا : انك تلبسين ثوب زفاف أسود وطرحته بيضاء . الاسود لا بأس ولكن هذه الطرحة البيضاء تقلقنى . أفيدونى بالصحة والأحوال .

لماذا ذهبت الى ذلك العشاء . لعلهم يقولون : لماذا دعوناها. لم أعد أملك اخفاء كآبتى رغم الحبوب المهدئة ، ومع ذلك لولا الحبوب المهدئة لاختلف رد فعلى بخطورة أمام ما قاله صديقى السابق: «قلبت فى تاريخنا .. كل صفحة : احتلال وغلب ووجع قلب .. قلت يا واد عشان ايه تكون أحسن من جدك » .

العشاء « كباب وكفتة » فى الحسين . يا الحسين . يا جدى الحسين . صاح أخوه لأبيه العباس بن على :

ـ « معاذ الله والشهر الحرام » .

وسأله ابنه : « ألسنا على الحق يا أبتاه ؟ » .

قال الحسين : « بلى ، والذى نفسنا بيده » .
فصاح فتاه العظيم : « اذن والله لا نبالى ! » .
ــ « ولو لم يكن لى سلاح ، لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك ! »
ياجدى الحسين . صاح القاسم بن الحسن والسيف فى قلبه :
« يا عماه »
بكى الحسين : « عزيز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك .. أو يجيبك ، فلا ينفعك فى يوم كثر واتره وقل ناصره »
كان يجب ألا أذهب معكم الى الحسين . ولم أكن أريد أن أكون مطعمة على مائدتك . أردت بعدها أن أعيد اليك ثمن عشائى بشكل ما ، ولكن ماذا كان عشائى ليلتها ؟ تماما شعرت بالأسطورة القديمة : اننى آكل لحما بشريا مفروما : ذلك الكباب والكفتة . كنت تطعمنى أصابع بشرية سدت حلقى فلم أقو أن أقول لك استيائى وعرفت معنى الأضداد فى المحبة والمقت .
أيها الراقصون انتبهوا : السمك يموت فى البحر . فى كتاب الموتى الجديد يقول المؤلف الجديد المجهول :
لا تلعق جرح أخيك (١)

(١) من قصيدة للشاعر بهيج اسماعيل

بلسان يحوى جرثومة .
لا تلق بصاقك فى حلق فقير جائع ،
لا تطفىء مصباحك فى عرض طريق
تسبح فيه الظلمات .
لا تعزف ألحان الفرحة
فى صحراء قفر .
لا تحمل قربة ماء مسمومة .
لا تمسخ معنى الحى
لأنك شارفت الموت .
يرحمنا الله . . .

ذهبت الى صديقتى أتناول معها الغداء . قال زوجها على لمائدة : « أمريكا دولة عظيمة » . قلت فى تهافت تمليه آداب لمائدة : « تقصد دولة عظمى » . نظر الى طبقه وأضافت سديقتى الى طبقى قطعة ثالثة من اللحم . قالت لى : « آن شونسى » فى المطعم الفاخر على مائدة غداء وداعها لى : « سأطلب لك قطعة اللحم الكبيرة فلديكم فى مصر أزمة لحم» . للت لزوج صديقتى : « فيتنام دولة عظيمة » . آشعل غليونه ونظر الى زوجته صديقتى فى تفاهم : « لم أتسرع فى الزواج حتى انتقى الرجل المناسب » .

ـ « تحبين فيروز ؟ »

ـ « عندك زهرة المدائن ؟ » .

ـ « لا . . . »

ـ « ماكنامارا كان بالقاهرة » .

ـ « تسمعى دبكة ؟ » .

بعلبك الهادئة النادية فى المســاء . انطلاقا وبشاشـــة رقصت الدبكة فى بعلبك منذ تسع سنوات . « الطلبة العرب بنيويورك يقدمون لكم رقصتهم الشعبية : الدبكة .. من أجل أن نعمل جميعا على خلق تفاهم أفضل بين الشعوب » .

يا أم الضفاير حلوه .

والجبين العالى .

زين جمالك والله.

مشعشع فى الليالى .

أيها الأصدقاء الأعزاء : يا لعبة التفاهم العالمى أنا ابنة مدينة عجوز رأيتها فى الحلم تزف بثوب أسود وطرحة بيضاء .

يا عود نبت فى أرضى وشب . (١)

وردة جديدة مروية بدم القلب .

---

(١) من اغانى قرية كمشيش

رواها صلاح بدم صبيب
ولا استناش يشوف زرعه
نهار ما يطيب .
يا عود أخضر .
يا عود زهر .
يا عود عتر .
يا منور أرضنا بالحب .
يا ناب الوحش يا اقطاع .
يا ماصص دم ناس جياع .
ولا بتشبع ولا بتقنع
بشرب الدم .
كسرنا لك زمان الناب
وقلنا يتوب ويبقى عقاب
لكن لسه فى مكانه السم .
عشان الأرض ما تخضر
وتطرح ورد .
عشان اللى زرع .
يجنى بايده الشهد .
عشان الـكل .

محال الراية راح تسقط من الفلاح .
وصلاح من بعده ألف صلاح .
سلام يا صلاح .
ونام وارتاح .
وبص وطل .
تلقى عودك الأخضر : فل .



ـ « مثل انقطاع التيار الكهربائى » .

ماذا كنت أقول ؟ أحلم حلمـا متكررا ان أمامى امتحان ليسانس الصحافة وأنا غير مستعدة : المقررات غير كاملة ودفاتر المحاضرات ناقصة ولا أجد كتاب الجغرافيا .

قال لى سائق العربة الأجرة وأنا أهبط منها :
ـ « لا مؤاخذة ان كنت ضايقتك بالكلام ! » .
انفجرت فى وجهه باكية .

القاهرة ١٩٦٨

شروق في حدقة معتمة

لندن ٧٠/٤/٢٥
على مائدة الافطار
فى الفندق النائى
ـ الغطاء أبيض
والزبد متوفر والطعام ـ
طالعنى وجهك الجميل .
وجهك لم يبرحنى منذ أمس :
منذ أن قرأت وربطت بين الأخبار :
كنت فوق سيناء
واستشهدت .

***

(*) الى الشهيد أشرف مقلد والابطال شهدائنا .
(**) قدمته الاذاعة برنامجا خاصا بعنوان « وتريات « يونيو » : اخراج كرم مطاوع وموسيقى كمال بكير واداء محسنة توفيق ومحمود ياسين وعبدالرحمن ابو زهرة واشرف عبد الغفور وعبدالمنعم ابو الفتوح ورشدى المهدى .

فى الكلمات التى تبادلتها
مع الأغراب أمامى على المائدة :
سألونى عن الجو فى مصر
ــ وكانت لندن ضبابية معتمة ــ
امتلأت عينى بوجهك وقلت :
صـــحو .
ورغما عنى .
لم أكن أريد
تمتمت فى قلبى : يا حبيبى
فبكيت .

***

مطار فرانكفورت فى الطريق الى مصر ٤/٢٦ .
فى مطار المدينة التى رفضت أن تقبلنى عابرة
لليلة واحدة ــ فرانكفورت ــ
جلست أشرب القهوة السوداء .
وتساءلت :
هل تجسسوا رأسى
وعرفوا انى أحملك ؟

***

« من أجل سلامتكم »
ـ صاح مرشد الطائرة ـ
« فتشنا حقائبكم حتى القاع
ولو زادت الأحداث
سوف نفتش .... » ونظر الى .
ـ راكبة من بلاد العرب ـ
لم أبتسم ولم أغضب
لكننى لمست كتفك
ـ حيث ربت عليك آخر مرة ـ
وتمتمت فى قلبى : ستزيد الأحداث .

***

« بسم الله الرحمن الرحيم
ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد
صدق الله العظيم »
حين رددتها ورائى لتكتبها
لبرهة رأيتك
القاسم بن الحسن
ـ فتى بطلا مشرقا ـ
وحين تركتك

حملت معى استبشارى
ورغما عنى
ـ لم أكن أريد ـ
تمتمت فى قلبى : لكنى سأشتاق لك
وثقلت خطاى .

***

الوعد فى شدوان
ألا يبكى الراحلين :
ـ « الموفدين من قبل مصر
فى المهام القومية » ـ
قالها الفلاح وضحكنا
لرطانته .

***

أمام شباك الحجز
تعجلت عودتى
لألحق اليوم الأخير فى ابريل
لنلتقى :
لمرة أخرى كنت أريد أن أتلمس
الثقة والكبرياء ونبرة الفتى :

« نحن قادرون »
وترتعش فتحتا أنفك
لتفضح الحماس المنكظم .

***

حين أدخل كمشيش
فى الثلاثين من ابريل (*)
لنذكر الشهداء
وندفع الشهداء
سأعرف ان المقعد الذى بجانبى
هو مقعدك .
وحين أبكى .
سيكون رغما عنى
ـ لأننى لم آكن أريد
أن أكسر وعد شدوان

***

فى شوارع المدينة التى لم تبهرنى : المطر يهطل يهطل يهطل يهطل وأنا تحته أسير غير برمة وغير مرحبة . الضباب كثيف

(*) ذكرى اغتيال الشهيد صلاح حسين بيد الاقطاع

والشمس لا تغرب . واليوم طويل والطرقات مزدحمة وذكريات التعب تعود : حشدا متدفقا لكننى لم أعد التى لا تتعب . كتفى بدأت تحس ثقل الأثقال وجلدى بدأ يلتهب بالوخز . كيف كنت كيف تلك الملعونة القادرة وكيف لم أعدها كيف .

(صمت)

البحر الذى عبرته ليس الذى أرهقنى : ليس الذى يرهقنا سوى الذى جعل فى غير قدرة العربى أن يستمتع . كل شىء صار كأنه اختلاس محرم حتى تنفس الهواء الأملس فى حديقة . ما أن نضحك حتى نغص فى استحياء . حتى الحب ــ تلك القدرة الأبدية المتوالدة من ذاتها وغير المنتهية أبدا ــ صار حين يهمس يصرخ مرا :

أحبينى بما خفت من الموت (١)
الذى يملأ وجهى

(١) من قصيدة للشاعر ممدوح عدوان

وارفعى جبهتى المنكفئة .

(صمت)

أيوب البلاء على جلده يلتهمه . أيوب لو ضحك لما صدقناه . لو ابتهج أو رقص لما رأينا غير جسده المتقيح . لو اشترى أفخر الثياب لعرفنا أنه لن يعرف يرتديها : لن يمكن أن يستر جروحه . أيوب الثياب ولو من حرير ستزيده تسلخا وتسكب النار والألم الأحمر فى فجواته .

آه يا أيوب : يأتيك دواؤك يناديك :

ـ أنا دواك يا أيوب .

تقول فى حكمة وصبر :

ـ هل آن الأوان يا رعرع ؟

يا أيوب : بصبرك ضربوا الأمثال لكن حكمتك أبدا لم تكن يوما مثلا .

يا رعرع تقدم وداونا .

(صمت)

والمطر ما زال مطرا والنـــاس الألوان والشعر المســحوب
والملفوف والهائج والمنطلق والثياب المتروكة لتعبر عما شاءت
وأنا أسير : جئت لأتفرج لا جئت لأضـــحك لا جئت لأبحث
لا جئت لأهرب لا جئت .

(صمت)

ليظل الكمد الراقد فى قاع القلب ثقالتى التى تعطى خطوتى
توازنها الخاص حتى يعرفنى ناس المدينة الغريبة أنى لست منهم
وحتى أعرف أنى لن يمــكن أن يداوينى الا رعرع أيوب ــ
العشب البلدى كاسح البلاء :
وجهك ــ يا حبيبى ــ لم يبرحنى منذ أمس
منذ أن قرأت وعرفت أنك :
كنت فوق سيناء
واستشهدت .

(صمت)

قلت لسائق العربة الأجرة

ـ « اصعد بى الى هناك » .

شعرتها الكلمة « أصـــعد » ، رغم أننى لا أعرف اذا كان الطريق صعودا أو هبوطا .

منذ أيام ذهبت صديقتى لترى أخاها ولم تأخذنى . قالت إنها خشيت أن تأخذنى . قلت سأذهب وحدى . لفحتنى رائحتهم : أريج الزهور والفـــل والريحـــــان وكانت معى بعض أطواق الياسمين . لم أبحث عن واحد بالذات . كلهم ذلك الواحـــد الذى يعنينى : الذى جعلنى أبتسم وأشرق بالدموع .

منذ ثلاث سنوات كنت أسير شوارع القاهرة هبوطا كلها . وجهى كالح جاف والخسوف كامل يجعلنـــا لو نظرنا فى قرص الشمس نعمى . والأرض الملتهبة ترفضنا : حزن أزرق مرشوق كحصاة وسط القلب : وحين قدرت أن أبكى عرفت أن أبتسم .

***

مجمـــوعة القرنفـــل بخمســـة قروش لكننى اخترت أطواق الياسمين يا حبيبى . لم أعنها واحدا بالذات حين نظرت الى مجموعكم الممتد .

« يا حبيبى » كلمة لا جمع لها : يا انتم : يا وجهى الجميل الأسمر . حين طفت أتفقد أسماءكم المنقوشة عرفتكم : « أنا » . لا تزال يدى ساخنة بملامستكم . كأننى أنا التى حاكت لكم

جميعا زر قميص سـقط آخر مرة . كأنني التي نبرمت حين غسلت الياقة المتسخة مخفية في قلبي فرحتي أنها لا زالت تأتيني متسخة مرة ومرة .

صيف ثالث يعودنا بأيام ذات نسمات لطيفة .

مروركم حرك الهواء العاطل : لا عاد القيظ .

مجموعكم الممتد هنا ثمن أن يتنسم الاختناق الهواء : فهاكم أطواق الياسمين يا حبيبي .

***

قال سائق العربة الأجرة :

ـ قريب لك ؟

قلت :

ـ وأنت أليس لك قريب ؟

قال : كلهم أولادنا .

قلت : نفس قرابتي يا ولدي !

ضحك . وضحكت وسارت بنا العربة صامتين حتى قال لي :

ـ لم تقولي « مقابر الشهداء »

ـ قلت اصعد بي الى هناك .

ـ لكنني عرفت .

ـ كيف ؟

ـ اشارتك وصوتك والياسمين .
ـ كرهت أن أسميها مقابر .
ـ شواهد .
ـ نعم !

***

هبطت فى ملقف الطرقات وعند المقهى لفحتنى رائحة الموت وقالت لى محاجر العيون المتآكلة : ثمـــار غابة الشجر المر واللبلاب .

ـ نحن لا نفعل شيئا .

قلت وكفى لا زال بها عبير الياسمين :

ـ الشواهد قالت لى غير ذلك .

***

هبطت هبطت حتى صعدت الدروب المنسية وتغلغلت فى قرى الطمى : العيون التى أعطت سألتنى :

ـ هل السماد طيب ؟

***

العيون التى أعطت : تعطى : تقول :

ـ لا زال المزيد لدى .

فى قرى الطمى سمعت الأغنيات :

يا بلدى لما يموت ثاير
تطرحى بدله ألفين ثاير
يا حضانة الثوريين
طرحك كله فدائيين

قالت لى الشواهد :
ـ كلنا جئنا من قرى الطمى .

***

قالت لى محاجر العيون المتآكلة على المقهى :
ـ نحن لا نفعل شيئا .

***

سألوه هل تعرف ماذا تعنى « لعبة » ؟

قال الطفل من بحر البقر : « أول هام أقتل عدوى ، ثانى هام أصلح الأرض . »

ابن الطمى يعرف كم هى غالية الأرض وحين يتصور الأمر يراه عدوا يمنعه من العلم والزرع والحصد : « آخ لو ملكونى عليهم ! » قالها طفـــل بحر البقر وهو جريح نائم على سريره لا يملك الحركة ، وعندما سألوه كم عمرك . قال :

ـ سبع سنوات ولا أعرف ماذا تعنى « لعبة » .

***

الأطفال . الأطفال : جزء من كلام لصلاح جاهين يعطى ظلا لما تعنيه هذه الكلمة : « الأطفال » :

ايه رأى رجال الفكر الحر
فى الفكرادى المنقوشة بالدم
من طفل فقير مولود فى المر
لكن كان حلو ضحوك الفم
دم الطفل الفلاح

... ...

عيونهم : العيون الكبيرة السوداء اللامعة . والوجه النحيل : يميل للشحوب وبه بقع بيضاء على الخد أو الجبهة . الوجه المتسائل الفضولى الطيب المغلف بالهم ، المبتهج لأقل حد أدنى تحقق له من ضروريات الحياة .

الأطفال . الأطفال : أكاد أسميهم واحدا واحدا بالاسم دون أن أرى صورة واحد منهم . لكننى أعرفهم جميعا : حلوين ولهم أنف لا يجففه منديل أبدا .

***

هذا الذى تمثلت فيه كل ما نكرهه فى العالم من دمامة وابتذال : ذلك المطلق للكريه وتجسيم الشراهة والقسوة والشراسة والنذالة : أمريكا . نعم . ذلك الغول الذى يحبس

ضميره فى حقيبته وعندما يضيق به يرميه فى المرحاض ويشد عليه الماء .

ولأنه يعلم أن الكراهية تحيطه : قرر أن يقتل الناس جميعا حتى يتأكد أنه تخلص ممن يكرهونه .

الأطفال . الأطفال : هل من الواجب أن تتحول الى فيتنام حتى يتحرك من أجلنا العالم ؟

هل يجب أن تتم المذبحة كاملة كل مرة ؟

تتكرر بتفاصيلها حتى يلاحظ العالم آن ملامح الغول هى نفسها لم تتبدل هنا عن هناك ؟

يجب أن تتكرر الانتفاضات الحرة ، لكن لا يجب أن تتكرر المذابح .

« جيفارا » قال فى أحد خطاباته الأخيرة ان العالم يرقب فيتنام كأنه يرقب لعبة فى حلبات الرومان القديمة . لا أحد يتدخل بالفعل ليكف سيلان دماء الضحايا . فيتنام تقابل مصيرها فى ألم مأساوى .

ماذا صنع العالم بنواحه من أجل فيتنام ؟

فيتنام لم تكن تسأل تصفيقا أو ملاحم .

فيتنام كانت تطلب : ألا تتكرر !

فيتنام كانت تطلب أن يفدى أطفالها أطفال العالم فلا يقتلون

بعدها من أجل نزوة أو عبث الغول الأمريصهيونى .

من أجل ذلك كانت فيتنام قضية كل الشعوب المتحررة :

كانت كشافنا « لاحتمال » يمكن أن يتحقق علينا جميعا لو لم نطوقه قبل أن يمتد كالوباء المسعور .

فى مسرحية ميخائيل رومان « ليلة مصرع جيفارا العظيم » تقول الجموع : « فلنكن لعدونا الطاعون والجذام . ولكن الوباء الذى لا يمكنه السيطرة عليه » .

لا يجابه الوباء الا وباء مضاد . ولا يجابه الطاعون الا طاعون مضاد : فهذه ــ كما قال جيفارا ــ :

« اللحظة غير المنطقية فى التاريخ » .

***

عندما كنت أرى صورهم ، موتهم ، لوعتهم ، وبسالتهم ، كنت لا أراهم وجوها أو أسماء فيتنامية . كنت أراهم «احتمال» العالم : « احتمالنا » أمام الغول . كنت أكاد ألفظ أسماءهم : محمد ، على ، أحمد ، حسن .

عندما كنت أرى صورهم وهم قتلى : لم أكن أراهم وجوها فيتنامية : فلقد كانوا الفتيان والرجال من عمال « أبى زعبل » ، ولقد كانوا الأطفال الذين قتلوا ذلك الصباح فى بحر البقر جنب آذاننا :

فيتنام لم تكن تسأل تصفيقا .
فيتنام كانت تطلب ألا تتكرر .
فيتنام كانت تطلب أن يفدى أطفالها أطفال العالم :
فلا يموت أطفال بحر البقر .

***

شقيق صديقتى حين طلب أغنى غنيت :

أنا أمه يا فرحة أمه
يا عرسه فى ليلة دمه
ياتراب الحرية ضمه
يا اخواته للثورة انضموا
زغرودة يا الله زفوه
جابوا الشهيد جابوه
جابوا العريس جابوه
وبعلم الثورة لفوه

حين ابتسم فى وداعة وشكر : عرفت لتوى انى غنيت له ، عرفت لتوىأن الأغنية طمأنته ، وحينوقفت أمام شاهده قلت :
ــ يا ابن قرية الطمى لن يتوقف الغناء لأنك : تحبه .

***

فى ملقف الطرقات حيث يكثر اللغط وتتعارض الأضواء

وتتحدث محاجر العيون المتآكلة بالموات : حيث لا تلطم الأكف الا وجهها ولا تدق الأيدى الا صدرها : فى غابة الشجر المر والبلاب حين همهمت أغنيتى أصمتونى فى استهانة واستبلاد :

ـ عزاء ـ كل ما فى الأمر ـ لا جدوى فيه .

فى حديقة الشواهد حيث حملت أطواق الياسـمين وحيث غنيت وطفت : حين بكيت قلت للشواهد :

ـ حين أبكى أعرف أن أبتسم .

ـ حين تتعزى نعرف أن تتواصل

ـ الصبر ليس سـكونا : الصبر ديمومة حركة الهواء حتى يتنفس الاختناق .

قالت لى الشواهد :

ـ لا جدوى فى غابة الشجر المر والبلاب : نحن قد أتينا من قرى الطمى ومن الدروب المنسية :

يا بلدى هاتى ماتعدى
عنا ولادك ماتخبى

***

قالت الشواهد :

ـ نحن لا ننتهى

قلت .

ـ زرع القرون الطويلة لا ينخلع
قالت الشواهد : « وحين تذرونا العاصفة »
قلت : « يشدنا الجذر . »
قالت الشواهد : « ونبت أبدانا خضراء »
قلت : « الغصن الأخضر لا تحرقه النار »
قالت الشواهد : « الغصن الأخضر نقلب به الجمر » :
يا عود نبت فى أرضى وشب
وردة جديدة مروية بدم القلب

***

فى السهرة الشعرية قالوا للمخرج : ماذا تفيد الكلمات ؟
قال المخرج : هذا ما أجيده ولابد أن أوظف نفسى لما أجيده .
الكلمات يمكن أن تتوظف من أجل محاربة كلمات الموات .
كذلك يكون أحد أشكال الاحتجاج : أحد أشكال المقاومة .
قلت للشواهد :
ـ لايمكن أن ينفرط الياسمين عبثا وأنا آتى به أطواقا اليكم .
وقلت للذى غنيت له ترنيمة الشهيد :
ـ لن يتوقف الغناء لأنك : تحبه .

لندن ـ القاهرة ١٩٧٠

لادولشة فيتا

« لادولشة فيتا »
كان عنوان فيلم معناه :
الحياة الناعمة .
وأصبح الآن مقهى فى بيروت .
بابا نويل بالون منتفخ بالهواء .
سألت البائع : « كم ؟ » .
قال : « ليرتان
وهكذا تنزعين السدادة .
وهكذا ينطوى لتحمليه » .
أحمله الآن وقد دفعت الليرتين .
وأستطيع أن أملأه بهوائى متى أشاء .

وهذه حريتى فى بيروت .

***

النادل يأتى ويروح .
النادل يأتى بالشاى .
والزبد والخبز الأبيض .
يأتى . يأتى . يأتى .
البحر أمامى .
الناس خليط .
كهل يمشى .
يخترق المقهى . الناس . البحر خليط .
يتساءل . يسأل : « شيئا لله ! »
شىء لله ؟
شاب يتكاسل .
شاب يعطيه .
رجل يرفض .
أيهم المحسن ؟

***

« لادولشة فيتا » .

الحياة الناعمة .
اسم المقهى .
اسم الأفيون .
اسم الغاز المتسرب
الصاعد من مطبخ أمريكا .
هل نسقط بيروت المقهى ؟
أو تفتح احدى نوافذها لتفيق ؟

بيروت ١٩٦٧

الثلج يلسع وجهى

الموسيقى راقصة ، والمكان ملىء ومزدحم بدخان السجائر والكلمات . دفعت بكتفى الباب ويداى مليئتان بأشيائى ، حقيبة الكتب والمظلة وأوراق الرسم . نزلت السلالم القليلة ، وسرت بين الموائد أبحث عن مائدة خالية . كل الموائد يشغلها الأصدقاء . ليس لى أصدقاء هنا . أشيائى ثقيلة فى يدى . أريد أن أنزع معطفى . الماء يبلله والثلج ما زال يغطى أكتافى .

« هاى ! هل أستطيع أن أساعدك ؟ »

« هارى » كالعادة جنتلمان ولكنى كالعادة أيضا رفضت صداقته . أنا أكره الصداع . أكره أن أناقش كل تصرفاتى وأعللها لأننى لا أجد دائما مبررا لكل ما أصنعه . هل كان الحل ألا أتصرف أبدا ؟

« جانيت » هنــاك معطفها مبلل ، لكن يديهــا خاليتــان و«رالف» أيضا معها . تركت القاعة الأولى وصعدت الدرجتين الى الجزء الأعلى من الكافتيريا . أنا لم أتناول افطارى بعد . لم أستيقظ مبكرة كما يجب . استيقظت الساعة الثامنة صباحا. الافطار ينتهى السابعة والنصف . لم يكن معى دراهم كثيرة ولكنى شــعرت بجوع . يجب أن آكل . أمس أيضــا فاتنى العشاء . انتهى عملى فى السابعة ونسيت نفسى فى المكتبة وعدت الى بيت الطالبات الساعة الحادية عشرة مساء قبل موعد اغلاق الباب بدقيقة . اخترقت القبلات . وصعدت الدرج الى غرفتى . نظرت الى « نيتا » بحنان :

ــ « صافى .. أين كنت ؟ لقد حجزت لك عشاءك حتى الثامنة والنصــف .. » اكتفيت بفنــجان القهــوة الذى أحضرته لى « كارول » . كان يجب أن أنتهى من أشياء كثيرة قبــل أن أستجيب لرغبة عينى فى النوم . لم أنته . ولكنى شعرت بأهمية النوم عندما نظرت الى الساعة واكتشفت انها الرابعة صباحا . كان عذرى انى تأخرت فى النوم حتى الســاعة الثامنة ولكن أحدا لم يسألنى عنه .

أشعر بجوع للنوم والطعام . أريد أن أنزع هذا المعطف .

ــ « ناز .. كيف حالك ؟ »

عرفت صوته من لهجته الباكستانية والجملة العربية الوحيدة التى يعرفها . ابتسمت ببعض اطمئنان .

ــ « سلام .. راجا نائب .. »

ــ « هل معك أحد ؟ »

ــ « لا . . . »

ــ « لماذا لا أدعوك الى فنجان قهوة .. ؟ »

ــ . . . . . .

ــ « لماذا أنت هكذا ؟ »

ــ « لا أدرى . . . . »

لماذا أنا ماذا ؟

كان يريد أن يقول : لماذا أنت غبية ؟ . أنا لست غبية ، ولكنى كره الصداع . عدت بقطعة « كيك » وفنجال قهوة ووضعت اظرى عليهما وبدأت آكل بهدوء وأحسست بنظرات انباكستانى

ــ « يجب أن تساعدى نفسك . . ! »

ولم أجب . لا أدرى . ولكنى شعرت انى سأبكى لو حاولت خراج كلمة واحدة .

ــ « هذا غير منطقى ما تحاولينه . . ! »

ونظرت اليه . نظـارته امريكية ولكن وجهه ما رال يحتفظ لمابعه الشرقى . بأى لسان يتكلم ؟ لسانه الحقيقى . أم ايحاء

نظارته ؟

ما الذى أحاوله ؟

أن ألبس تقاليدى وأحكم اغلاقها حول عنقى ؟ ألم يكن هذا هو حل الصداع الوحيد ؟ ولكن ما هى تقاليدى ؟ أن أبتر البهجة ؟ بهجة الشعور بالانتماء ؟ أن أتحرك كالشبح الظل فوق عينى وعلى شفتى ؟ هل هذا ما يطلبه منى الناس فى بلدى ؟ أنا لا أعرف ما يطلبه تماما كل الناس فى بلدى ولكنى أعرف ان الذين كنت بينهم كانوا دائما يطلبون منى أن أكون نفسى .

فى بلدى كنت أكثر حرية وتحررا . لماذا ؟ شىء لم أتوقعه ؟ ربما لأن قدمى تعودتا أن تغوصا فى رمال بلادى وما زالتا تخشيان أن تتنقلا على الثلج ؟

ليس هذا ولكن . . .

وارتفع صوت الباكستانى :

ـ « هل يملى عليك أحد أن تتصرفى هكذا . . ؟ »

يملى ؟

لم يمسك لى أحد عصا : افعلى هذا .. أو لا تفعلى هذا .. لا .. ناسى أكثر دبلوماسية . رفعوا الى أنظارهم فى احراج وعضوا على شفتهم السفلى !

كان يمكننى طبعا أن أغمض عينى ولا أرى . وكان يمكننى طبعا أن أصرخ « لا أحــد له الحق فى أن ينظر الى هكذا » ولكنى . ولكنى فقدت هوايتى القديمة فى النقاش ولم تعــد بى طاقة للدفاع عن بديهيات .

ــ أنا لا أفهمك . . !

وأزاح الباكستانى كوبه الفارغ .

لا أحد يفهمنى . هذا أكثر ما يحزننى . عندما رأتنى «نانسى» دائما أعود وحدى نقرت بابى :

ــ « هل أعرفك بأحد أصدقائى ؟ »

ــ « لمــاذا . . ؟ »

ــ « لأنك ليس لديك أصدقاء . . ؟ »

ــ « أنا لا أريد .. »

ــ « لمــاذا لا تريدين . . ؟ »

ــ « يجب ألا أريد . . »

ــ « كيف تذهبين الى حفلات الموسيقى . . ؟ »

ــ « وحدى » .

ــ « والمسرحيات ؟ » .

ــ « وحدى » .

ــ « وحفلة الأوبرا ؟ » .

ـ « وحدى . . . »

ـ « و . . و . . ؟ »

ـ « وحدى . . . »

ـ« لمـاذا ؟ »

ـ « هكذا . . . »

ـ « ولكن هذا غريب هنا . . فتاة وحدها . . »

ـ « أنا غريبة . . ! »

ـ « لكن هذا صعب . . . »

ـ « أعرف ذلك . . . »

ـ « اذن . . اوه أنا لا أفهمك ! »

لماذا فتح الباكستانى الباب ؟

كنت أريد أن أتجاهل وحدتى ولا أهيج أفكارا ثائرة . كنت أريد أن يستمر احتفاظى بما قرأته وما أحببتــه على الرف ! كنت أريد أن يستمر اقتناعى الصورى بأن هذا لسانى الذى أتكلم به . وهذه أفكارى التى أرتلها . ولكنه ما زال يحاول أن يقنعنى بأشياء اعتنقتها منذ عشر سنوات !

ـ « ديننا هو الوحيد الذى طلب منا أن نفكر وأن نوائم وأن تتصرف » .

أنا لم أعتقد يوما ان دينى هو الذى يقيدنى . وأنا لم أفكر

يوما أن أنسلخ عن ناسي وأصبح مجتمعا غيرهم . ولكن أن ينتهي يومي بشارع طويل أسود لا أسمع فيه سوى صوت حذائي يقرعه . وأن يبدأ يومي بفنجال قهوة أشربه سريعا قبل أن يكتشفني أحد ويجلس أمامي ليتحدث . وأن يظل مقعدي في كل مكان هو المقعد الفردي الوحيد الذي ينظر اليه الجميع بريبة . هذا هو الانسلاخ الحقيقي . الانسلاخ عن حياة حولي سائرة . ولكن هل يفهم ناسي كل المعاني التي أحس بها ؟ أشعر بأن كل رموزنا مختلفة .

« أنت في حاجة الى صديق . . ! » دق الباكستاني المائدة وشعرت برغبة في أن أحكي له قصة . واحترت أي قصة أختار ؟ التي حدثت أمس ؟ كنت مرهقة أشعر بكلام أريد أن أكتبه . واخترت المكان الذي تملؤه الموسيقى . وضغطت على زر أسطوانتي التي أحبها . جلست أكتب وأنتظر دوري . وبدأت خيوط سيمفونية برامز الرابعة تأتي الى . أحبها . أحب الشجن الذي يملأ كل تعبيراتها . وتركت الورقة والقلم وأغمضت عيني أستمع . وانتهت الاسطوانة . ودخل الحجرة فتى أعرفه . رأيته في اجتماع ما . وجلس بجانبي . ثم بدأ يتحدث . وأعجبني الحديث فلم أقطعه . لا أدري ربما كنت أحس برغبة في الكلام. ولم أعرف ما هو الخطأ . ولكني رأيت نظرة الاحراج وعضة

الشفة السفلى مرتسمة بفزع على وجه ناسى . وأغلقت فمى وسحبت أشيائى وفهمت انى نسيت انى يجب ألا أتحدث طويلا الى أحد ! هل أحكى للباكستانى هـذه القصـة ؟ لن تعجبه ولعلها تستغرق وقتا لا يجب . اكتفيت بابتسامة جانبية .

ولم يرتفع صـوته هـذه المرة بكلام آخر . ألقى بسيجارته وقتلهـا بقدمه ومضى . وبهدوء . نفخت الرماد البـاقى من سيجارته . وتناولت معطفى وألبسته لكتفى وملأت يدى بالكتب والورق والمظلة وعبرت القاعة الى البـاب .

ولم أسمع هذه المرة صوت « هارى » الجنتلمان .

ارتكنت على البـاب وفتحته بظهرى وأكملت طريقى الى الخارج . الثلج ما زال مستمرا . فردت المظلة فوق رأسى ولكن الثلج المتطاير استمر يلسع وجهى ويغطى أكتاف المعطف .

كانساس ١٩٦١

شيء ضروري

الحقيقة انى لم أقصد أن أمر بهـذه التجربة ولكنى فجـأة وجدت نفسى فى موقف غريب مع هدى . لم يكن سـهلا فقد كان بيننا رجل . وأنا دائما كنت أعتقد ان الحب ليس ضرورة . وانه عائق معطل يشغل به الفارغون وقتهم . وانه لو فرض ونقر الحب بابى فلن أفتح له الا اذا ألحت دقاته وأزعجتنى . وكانت فلسفتى هذه تريحنى .

وعندما جاء حسن زميلا جديدا فى العمل كان على أن أشترك معه فى تنسيق مهمته ولكنى لم أرتح للعمل معه فى أول الأمر فما دام الرجل لا يهمنى فلا أقل من أن يكون وسيما . ولم يكن حسن كذلك . شعره مجعـد وجبهته أيضـا . عيناه بلا بريق وابتسامته خائرة حتى صوته بدا لى فاترا بلا رنين وأنا ثرثارة

ولا أطيق العمل فى صمت ، لذلك اضطررت أن أفتح البـاب ليكلمنى حسن عن نفسه . وعندما انتهى الشـهر الأول كنت أعرف كل شيء عنه . وأصبحنا صديقين .

ولا أدرى كيف بدأت أقرر أن حسـن وسيم وانه شخص رائع ، ولكننى أذكر اننا قررنا مرة أن نتناول غداءنا فى الحسين وذهبنا شلة كبيرة الى قهوة الفيشاوى واكتشفت هناك شخصية جديدة لحسن ، شخصية مرحة صاخبة تجيد ببراعة تحويل كل شيء الى نكتة كبيرة .

أمسكت يومها برأسى وأنا أسمع دقات لحوحة تدق قلبى

***

فى اليوم التالى لم تكن مهمة حسـن صعبة ليقنعنى بقبول دعوته للغداء . وأنا لست ساذجة ولكننى شعرت فعلا بكلمات حسن تحمل لى معنى خاصا . وبدأت صـديقاتى يسمعن منى كلمات دائمة عن السعادة . والبريق . والقلق . والخوف . لقد انبثق فى داخلى الينبوع الذى كتمتـه طويلا . وبدأت أحس بضرورة الحب . وأحببته أن يكون بسيطا منسـابا . رائقـا . وأضحكتنى تعليمات صديقاتى المجربات . فأنا لم أتصور انه يجب على أن أصطنع لنفسى شخصية ليست لى . كيف يمكننى أن ألغى حركاتى الواثقة . وأن أكسر ضحكاتى وأسبل عيونى

وأفضح صدرى . هل يمكن ان يكون هذا هو كل ما يطلبه منى حسن ؟ هل يؤذى رجولة الرجل أن تملك فتاته عقلا صافيا وفكرا ناضجا ؟ هل يكرهنى حسن عندما تحتد مناقشتى ويسبقه منطقى ؟ لم يمكننى أن أتصور هذا أبدا .

***

وعندما جاءت هدى زائرة لزميلة فى المكتب لم تلفت ذهنى بأكثر من كلمة اشفاق عندما عرفت انها مطلقة فى هذه السن الشابة . ولكن هدى لم تكتف بهذه الزيارة فقد التحقت بالعمل معنا سكرتيرة تدق على الآلة الكاتبة ولا أدرى لماذا لم تبتهج لهذا بقية فتيات المكتب ولكنى لاحظت انهن يتعمدن تجنبها والثرثرة عنها عندما لا تكون موجودة .

واضطرنى موقف المدافع الغاضب لهدى أن أكون صديقتها رغم احساسى باختلافنا الكبير .

فهدى سيدة تجربتها كبيرة وهيئتها ناضجة وملابسها دائما تظهر هذا بوضوح وأنا لست طفلة ولكنى دائما أبدو بجانبها ضئيلة وتبدو أناقتى ساذجة ، وتجربتى بلهاء . وهدى ثقافتها نسائية ولا تهتم بالكتب وأنا أحب أن ألتقط الكتب من كل من حولى . ولم يكن سهلا أن يجمعنا شىء ولكنى كنت أشعر بحاجة هدى الى من ينقذها من نفسها ويحميها من الناس وكان

كل الذى تستطيع أن تقــدمه لى أحاديث تهمسها عن أشيــاء لا أعرفها ترتبك لها أمعائى فى خوف وأتصور حسن وأرفض أن أصدقها هل يمكن أن يفعل حسن هذا أيضا .

ولكن استنكارى الخــائف كان دائما يضحكها . يجر من صدرها رجرجات متكسرة ناعمة تهز جسمها كله وتحتقن بعدها عيناها فى نظرة متخدرة غريبة ويتحشرج صــوتها المشحون : « يابنتى .. هو انت عايشه فى الدنيا .. »

اننى أحب حسن ألا يكفيه هذا . اننى أجلس معه كثــيرا ويمتد بيننا حديث . ذكى . بارع . تتكلم عنأشياء كثيرة حلوة . ان احلامى تصوره دائما معى على شاطىء محيط واسع أجرى فيه حافية ويلاحقنى هو فى صخب وأفلت أنا قبل أن يحتضننى .. هل يجب أن أجعله يحتضننى ؟

ولم أقل لهدى انى أحب حسن . ولكنى قلت لها اننى أجلس مع حبيبى واننا نتحدث . نتحدث . ولا شىء يحدث . وانه سعيد . وأنا سعيدة . وغمرت الرجرجات جسم هدى . وهى تموء فى ضحكة طويلة عاتية .

ولم أفهم ..

هل يلجأ حسن لغيرى ؟

ونظرت الى هدى . وتخيلتها هى على شاطىء المحيط وهى

تجرى فى ملابس البحر العارية وجسمها الناضج يهتز وحسن يلاحقها فتتعمد هى أن تتأوه وهى تتعثر ويرتمى حسن بجانبها وهو يلهث ويضحك باقتضاب فى صوت خائر . وتستمر هدى فى موائها الضاحك وهى تتصنع التمنع .

هل هذا حقا ما يريده حسن ؟

***

عند الغـداء . كنت أنظر الى حسن وأحاول أن أتخيل ما يريده وكان كل ما أريده أنا أن أخبىء فى صدره رأسى ولا أفكر فى شىء .

وابتسم لى حسن وأنا أنظر اليه .

ــ تحبى تروحى مسرح الليلة دى ؟

وبرقت عيناى كأنى أستيقظ .

ــ جدا ..

ــ تحبى نعزم هدى .. عندى ثلاث تذاكر .

ولم يلحظ حسن شيئا . ولكنى شعرت بقلبى يسقط . وعدت أتخيل شاطىء المحيط وهدى تتعثر . وحسن يرتمى بجانبها .

لماذا يريد حسن أن تأتى معنا هدى ؟

هل يظن انى لا أستطيع أن أملأ الاطار وحدى ؟

وتمنيت لو دلقت على رأسه كوب الماء . وصرخت فيــه .

ولكنى لم أستطع أن أفتح فمى خفت أن أتقيأ .

انتظرنا هدى عند باب المسرح . كان الجو باردا . وارتديت أنا ملابس الشتاء . فستان أسود يقفله عقد ملون براق . هذه الملابس يحبهـا حسن . قال لى مرة انهـا تجعلنى وديعـة ارستقراطية . هل حسن لا يزال يحب أن يرانى وديعة ؟

وأقبلت هدى صارخة فى فستـان أبيض لامع يكشف كل ما أخفيه .

ولم ترتح هـدى فى مكانها فجلست فى المقعد الآخر بجانب حسن وأصبح هو وسطا بيننا . ولم يعجبنى أن أكون أنا احدى كفتين والأخرى هدى .

وعندما نهضنا لنخرج تقدم حسن ليساعد هـدى فى ارتداء معطفها وتناولت أنا معطفى وارتديته وحدى .

لايمكن أن أنقاد لها . لايمكن أن أكون مثلها . لقد كنت أريد أن أنقذها من نفسها وأجعلها مثلى تقرأ الكتب وتتكلم بثقة ويحترمها الجميع ولا تخشاها الفتيات .

فى الصباح استقبلتنى هدى بقبلة وهى تلوك قطعة من اللبان. وبدأت تتحدث وهى تجلس منتصبة الى الآلة الكاتبة :

ــ نادية .. ايه رأيك فى حسن ؟

قلت بلا اكتراث وأنا أخفى ما يربطنى به :

ــ واحد ..

ــ معرفش .. كده .. يعجبك ..

قلت فى اقتضاب :

ــ يعنى .. وانت يعجبك ؟

وتوقفت هدى عن الكتابة

ــ ياه .. ايه بقى اللى حا يعجبنى فيه ؟

قلت فى دفاع :

ــ مش شايفه فيه حاجة أبدا ؟

وزامت هدى فى امتعاض :

ــ اهو باين عليه طيب .. ودمه خفيف شويه .. وينفع يقوم فى الانتراكت .. يجيب كوكاكولا .. وساندويتشات ..

وأحسست بغضب

ــ بس مش قادره تشــوفى أكتر .. مثلا ذكى .. مثقف .. عقله واسع .. حساس ..

ونظرت هدى رأسها فى استخفاف :

ــ وأنا مالى ومال عقله .. بقى بذمتك تقدرى تتخيلى حسن ده يبوسك .. والا يقول لك كلام حب ..

ولم أعرف ماذا تقصد هدى « بكلام الحب » .

هل هو شىء آخر غير كل كلام ينطقه حبيبى ؟

أقبل حسن ولم أفهم لماذا تعمدت هدى آن تكرر أمامه مواء ضحكتها وتلقى اليه بنظرتها الغريبة .

هل يمكن أن تكون قد اقتنعت سريعا بوجهة نظرى فى مزايا حسن ؟

ولم تسكت هدى . سألتنى : « حاتتغدى فين النهارده ؟ »

ـ لسه ما فكرتش ..

وتدخل حسن : « تحبوا تتغدى فى نادى التجديف ؟ »

وصدمت أذنى صيغة الجمع فى عبارة حسن وأسرعت هدى :

ـ والنبى صحيح .. انت عضو يا حسن ؟

وضحك حسن : « تقريبا .. »

ـ تعرف تجدف ؟

ـ لا .. بس كنت بطل الجامعة

ـ نفسى أجدف أنا كمان ..

ـ تحبى أعلمك ؟

وقفزت هدى وهى تتصنع طفولة :

ـ الله .. جنان .. بذمتك يا نادية مش يبقى حلو لما ألبس شورت أبيض وبلوزة فانلة بيضة .. واكبس على رأسى برنيطة بيضة وف رجلى جزمة بيضة وشراب « أول سايز » أبيض ؟

واقتربت منى مرة أخرى صورة شاطىء المحيط وحسن يدفع

بالقارب الصغير الى الماء ويمد يده الى هدى فتتعمد أن تتعثر فيسرع هو ليحملها وهى تموء وتنظر اليه نظرتها الغريبة .

وغابت الصورة وصوت هدى يرتفع يسألنى :

ــ تحبى تتعلمى معايا يا نادية ؟

ضحكت .

وأسرعت هدى تفسر ضحكتى

ــ والا تلاقيكى جبانة . تخاف من الميه .

ونظرت الى هــدى وحسن . هل أصبحت هدى حقا كفة تقابلنى يختار بيننا حسن ؟

واذا كان الرجل حقا لا يجذبه سوى الجسد فهل يمكننى أن أقف فى سباق أمام هدى ؟

ونظرت الى نفسى . الى جسمى البرىء الوديع . هل يمكنه أن يبعد حسن عن جسد المرأة الفائر المجرب ؟

وشعرت بشىء ما فىقلبى يتقلص . وأحسست انىجبانة فعلا .

ولم أعد أخرج معهما . ولم يعد حسن يصر على دعوتى .

ولم يعد يهم هدى أن أساعدها أو أدافع عنها .

وعدت الى فلسفتى القــديمة . أحاول أن أقنع نفسى من جديد ان الحب ليس ضرورة .

القاهرة ١٩٦٠

حاجة

أرخيت ظهرى على المقعـد الجريد المبطن بالوسادة الرخوة ويدى تعبث بمنديل ورق تثنيه بعناية ودقة . كنت أريد أن أبدو مهتمة بشيء . وصنعت زورقا وتعمدت أن أسقطه بحرص فى كوب الماء . استندت بمرفقى على حافة المـائدة وأنا أتتبع باستغراق حركة الزورق فى الكوب . ملمس الكوب فى راحتى مثلج. الماء به ضحل وسطحه دائرة مغلقة . لم ترحنى اهتزازات الزورق المختنقة فيه . أزحت الكوب . أرحت جانبى ذقنىعلى باطن كفى وأيقظنى ملمسهما البارد ونظرت اليه . أشياء غريبة تظهر لى على وجهه الآن . هل لمحت من قبـل حركة أنفـه العصبية هذه ؟ وفمه ؟ هل كان دائما صغيرا منكمشا هكذا ؟ وتذكرت أشياء كانت تعجبنى فيه . وجرت عيناى تبحث عن

يديه . كفيه المنسقتين كانت تعجبنى أظافرهما النظيفة الواضحة والأصابع الطويلة المنسابة . دائما كنت أشير الى يديه وأقول انهما شيء جميل . وكنت أبتسم . أبتسم وأنا أتخيله يعدنى فى حرارة أن يهديهما الى يوما . هكذا فعل « فان جوخ » بأذنيه الجميلتين : أهداهما لحبيبته . ولكن « فان جوخ » كان فنانا مجنونا . أما هو فكان ينظر اليهما ويحكى لى قصة الخاتم الضخم فى اصبعه الصغيرة .

هل كنت حقا مهتمة أن أعرف كل مرة الحوار الذى دار بين والدته وبين الصائغ اليهودى وهى تشترى منه هذا الخاتم احتفالا بشفائه من مرض الزائدة الدودية ؟

ما زال الخاتم فى اصبعه الصغيرة يشوه تناسق كفه اليسرى . وصورة فان جوخ تبدو باهته .

حول أنفه وعلى جبهته تناثرت حبات عرق . هل كان دائما يضايقنى التماع أنفه بهذه الصورة ؟

العرق حول عينيه الآن . عيناه مبللتان كأنه يبكى . شفقتى لا تثور . ولكنى لا أرتاح لعينيه وهما تبكيان . عيناه ؟ ماذا يعنى وهو ينظر بهما الى ؟ عيناه فحمة باردة لا تدفئنى ولا تضيء شيئا ولكنى أحبه . ألم أقل له هكذا وهو يضع حول اصبعى دائرة ارتباطى به . ولم أكن كاذبة . كان هناك شيء

ما أحبه يغمرنى بالسعادة . بجانبى رجل أنا آتيت به . أنا لست مثل اخواتى ولا مثل أى فتاة أخرى تزوجت فى العائلة . أنا التى أخبرت أمى انى سأتزوج « ممدوح » . لم يعجبها انه صغير ، وان مرتبه لا يكفى ولكن أنا أعجبنى انه اهتم بى وانه كان يرقبنى دائما وانه قال لى وهو يتلعثم : « أنا فى حاجة اليك .. أريد أن أتزوجك .. »

ولم تفهم أمى ــ سألتنى ــ يعنى ايه محتاجك ؟

وأمسكت رأس أمى واحتضنتها : مسكينة يا أمى . هذه أشياء لم تعرفيها لم يقلها لك أحد عندما خطبوك لأبى وعندما زوجت شقيقاتى . أن يختارنى بالذات شخص بالذات لأقدم له شيئا لا تستطيعه غيرى . شيئا نحلم به . ونفكر فيه . ونصنعه معا . شيئا آخر غير الأطفال وغير رائحة المطبخ النفاذة .

لم يبد الاقتناع على وجه أمى . ولم تبتسم وأنا أضحك وممدوح يدس اصبعى فى حلقته الذهبية ويقبلنى وهو يحوط كتفى .

هل كانت أمى تعرف ان هذه هى كل حاجته ؟

ان أبرد رغبته فى القبلة التى يلح بها وهو غارق فى عرقه وتلعثمه ؟

وأن أختفى معه كل يوم فى ظلام مقعدين متلاصـــقين بدار سينما ؟

هل كانت تعلم ان يده الساخنة ستظل تعبث دائما بعنقى ونحن نسير معا بالقرب من النهر تعرقل انطلاقى وتحبس كل شىء مرح أود أن أقوله . وأنظر اليه أبحث عن ضحكة . ولا أجد سوى عينيه المبللتين بالعرق كأنه يبكى . ولا أستطيع أن أجعله يجفف عرقه ويضحك ويحوط معصمى بعقد فل وننطلق بالحديث عن الأشياء التى سنصنعها .

واليوم رفضت السينما . والنهر . والأماكن المغلقة . واخترت هذه الحديقة . جلست أمامه . بيننا مائدة . لا شىء أمامنا سوى أن نتكلم .

لمـــاذا لا يتكلم ؟

لماذا لا يحكى لى قصة أخرى غير قصـــة الخاتم الضخم فى اصبعه الصغيرة .

لماذا لا يقول لى شـــيئا طازجا يبهجنى يجعلنى أختلف عن شقيقاتى وأمى وكل فتيات العائلة ؟

ونظرت الى فمه الصـــغير المنكمش . ألا يستطيع أن يتكلم أبدا .

لا شىء سوى أن يتـــدحرج من شفتى الى ذقنى ورقبتى .

ينظر الى . عيناه مبللتان ملتصقتان بوجهى .

ماذا ؟ مناجاة ؟

هل يعنى بها شيئا جديدا ؟

حبات العرق تكاثرت على جبهته وأنفه وحول عينيه وتدلت من ذقنه .

« يعنى ايه يحتاجك ؟ »

كان هذا سؤال أمى ؟

ولم أحدد اجابة ما ولكن كل شيء بدا لى سخيفا ضحلا .

وأمسكت بالكوب . الزورق ما زال بداخله يتخبط ويدور على سطح الماء . الدائرة الضحلة المغلقة .

هذه الدائرة أصبحت تخنق اصبعى أيضا .

قابلت نظرته فى ملل . ولم أفكر فى اعادة كل ما قاله صمتى ولكنى كنت قد أفرغت الكوب وحررت الزورق من الدائرة .

القاهرة ١٩٥٩

مونولوج فتاة مهزومة

اليوم عيد الكريسماس . لم يكن فى نيتى أن أحتفل به ولكنى احتفلت بالصدفة . لم أكن سعيدة . لا أدرى لماذا ؟ هل أنا مريضة بالألم ؟ ربما . لقد كان يوما سهلا بسيطا ليست به حوادث خطيرة . لم يتعطل بى المصعد . لم تنقلب بى عربة الترام . ولم أتزحلق فى قشرة موز . ولم أقع فى غرام جديد .

بالعكس كل البشائر كانت تدل على انه يوم سعيد ، أو على الأقل يوم عادى . لم أكن فيه وحدى . كان حولى أصدقاء كثيرون . فى الكلية . وفى الطريق عندما خرجت كانت معى سناء ولكنى أحسست انه يوم ثقيل شعرت فيه بمرارة وألم وبكاء واننى وحدى ضالة لا يفهمنى أحد ، واننى ممثلة أجيد تمثيل

شيء لا أعرفه ، اسمه المرح والسعادة وأضع على وجهى قناعا لفتاة متألقة ضاحكة . خرجت من الكلية وسرت فى شارع الجامعة مع سناء . كانت الشمس جميلة وكان حديثنا رومانتيكيا . كانت تتحدث عن نفسها وأتحدث عن نفسى . كانت سعيدة راضية وكنت عكسها ولكنى لم أرض أن أعكر سعادتها بآلامى المبهمة . استخفها المرح فاقترحت أن ندخل «حديقة الحيوانات». استسهلت الموافقة فدخلنا . سناء تقول انها ملت المبانى وتريد ماء وشجرا ، أما أنا فأردت أن أرى الحيوانات . سرنا فى الجنينة وأحسست انى فى دنيا مصغرة الناس فيها مقسمون الى أنواع ، كل نوع فى قفص مكتوب عليه اسمه . وددت أن أكتب أنا الصفة . ان أقبح طير هو النعامة . انها تعطى شعورا لزجا . وأقبح عيون ، عيون الكبش الاروى . ان فيها طيبة مصطنعة وفيها خيبة أمل واستسلام وغموض وشر . وكرهتها لأنها الأخرى أوحت لى بمعان كثيبة . خطر لى ان أناقش سناء فى هذا ولكنها سبقتنى بالكلام ، واقترحت أن نجلس فى جزيرة الشاى . أزعجنى الاقتراح وأردت أن أقول اننا فى آخر الشهر وانى فى حالة افلاس تام ، ولكنى لم أقو على الكلام . شعرت ان لسانى معلق فى مشنقة والكلمات مخنوقة . سرت وراءها بلا معارضة وجلسنا فى أول مائدة خالية . المكان مزدحم .

وأناقة العيد واضحة « الله .. مش عاوزه أقوم » قالتها سناء وهى تقذف بفتات العيش للبط . لم أعلق ولكنى شعرت بملل فنهضت . وقامت سناء لتدفع الحساب وعدنا مرة أخرى الى الشارع ، وأخذت سناء تثرثر :

ــ اعملى حسابك عايزين نهيص النهارده .

ــ فين ؟

ــ فى أى مكان .

ــ ومين معانا ؟

ــ آمال النهاردة الساعة ٦ ميعادنا فى العتبة .

ــ الساعة دلوقت أربعة .

ــ وايه يعنى .. تروحى تلبسى وتنزلى على طول .. حاتلبسى ايه ؟ .

ــ زى ما انا .

ــ لا .. لا البسى جزمتك السكعب وجونلتك الجديدة ..

ــ مابحبش الكعب .

ــ علشان نبقى كلنا لابسين كعب .

ــ طيب .

ــ يا ترى امال حا تلبس ايه ؟

ــ وانتى ؟ .

ـــ الهافانا .. ايه رأيك؟ ..

ـــ حلو ..

فكرت اني مفلسة وان الامتحان قرب ولكن فكرة الجلوس فى المنزل بدت مستحيلة . نظرت الى ماما بذهول وأنا ألبس لأخرج مرة أخرى : « على فين ؟ » قلت وأنا أعلق الحقيبة على كتفى وأتجه نحو الباب : « جنينة الحيوانات » .

وصلت آمال وعلى وجهها شـــعور واضح بالأناقة . نظرت اليها سناء باكبـــار . أحست آمال بالنظرة فردت الجميـــل : «ظريف الطقم الهافانا ده ياسناء » ، ابتسمت مجاملة . نظرت الى آمال بلا معنى ثم قالت : « ألوانك غير منســـجمة » . انشغلت عن ملاحظتها ولفت نظرى صور عارية تباع على سور الأزبكية . بطون جائعة تبيع وعيون جائعة تشترى . شعرت ان هذه الصور العارية تعرينى أنا الأخرى . ضممت أطراف المعطف وطغى شعور بالغثيان . أعادت آمال ملاحظتهـــا مرة أخرى : « مش كده يا سناء .. باقول ألوانها غير منسجمة » . وبعدين؟ قلت فى فلسفة : « الألوان تعبير .. وجايز عدم الانسجام ده يكون له دلالة .. عن قلق .. مثلا » ؟ عدت المناقشـــة كأنها بسيطة . دفنت نفسى فى القناع وانغمست فى دورى أضحك . كانت قفشاتى سريعة بارقة ، لكن احساسى بالثقل كان يجثم على

أنفاسى ، وانتابنى شعور سخيف بالغيرة . ان آمال جميلة ، وأنيقة ، بيضاء ، وعيونها ملونة براقة وتلبس تاييرا صنع لها جسما رغم انها نحيفة ، وضئيلة وليس لها صدر على الاطلاق .

شارع فؤاد يلمع بالنور والناس كلهم متألقون والسيدات كلهن أنيقات جميلات . تسليت بالنظر اليهن . وشعرت ببعض الراحة لأنهن أجمل من آمال . ولكن سناء كل لحظة تقول لآمال : « انتى شكلك أجنبى .. » وأهز رأسى موافقة حتى لا أتهم بالغيرة أو عدم الفهم أو ثقل الدم . شعرت بيد تنقر على كتفى . التفت . كان زميلا جزائريا . صافحته فى صخب ثم مضى وأكملنا السير . آمال تقول : « يعنى ما تقابلش الا ده .. » زاد الضيق . ان هذا الفتى يهتم بى وأنا لا أحبه ولكنى سعيدة بالاهتمام نفسه . هل آمال تعرف هذا فتعمدت اهانته ؟ لا أدرى ولكنى أحس بحرب باردة بينى وبينها . وأحسست برغبة هائلة فى أن أقول لها انت غبية ولا تفهمين شيئا . كتمت أعصابى ولعنت فى سرى الزياء الاجتماعى .

وصلنا الى نهاية شارع قصر النيل . كعبى الالمونيوم يدق أسفلت الشارع . قرعاته الحادة المنتظمة تعطينى شعورا بالأنوثة . آمال تقول : «ظريف صوت الكعب» . أول ملاحظة طيبة قالتها اليوم . اكتشفت ان كعبها أيضا ألمونيوم . اشارة المرور حمراء

كرقبة النعامة المسلخة . العربات كلها واقفة . ترددت فى العبور . اننى أخاف من كل موتور متحرك . وهذه عقدة ، هكذا قررت آمال . الاشارة على وشك الانتهاء . جذبتنى آمال وهى تقول : « يالله هاتى حتة من ايدك .. » آلمتنى النكتة رغم انها قديمة . انها تعنى ان يدى كبيرة . رفضت أن أعطيها يدى ، وسرت بثبات وانطلقت بعدى العربات . آمال لا تزال تضحك على نكتتها . كرهت صوت ضحكتها ، فانتابنى فزع وساورنى خوف من أن أكون معقدة . لماذا رفضت أن أعطيها يدى ؟ لماذا لم أضحك رغم انها تمزح ؟ ولماذا كرهتها ؟ هل هذه حالة مرضية ؟ ولكن سناء مثلى انها أيضا تغار عندما تشعر انها مهزومة وتكره من يتحداها .

وصلت الى موقف الاوتوبيس دون أن تساعدنى آمال أو سناء فى العبور . الجو بارد ولكنى أحس بصهد حار يشتعل فى وجهى . آمال تتحدث مع سناء وأنا واقفة المفروض اننى أسمع . أخيرا تحركت آمال لتنصرف . قلت فى مرح وبلهجة تعمدت أن تكون أجنبية : « باى .. ! » أجابتنى باشارة من يدها تعمدت أن تكون مثل جين سيمونز . انها تشبهها . هى تقول ذلك . صعدت الاوتوبيس ومعى سناء . المقاعد كلها خالية وأنا مفلسة وسناء كذلك لكنها جلست فى درجة أولى . جلست بلا اعتراض

ولكن بامتعاض . تحرك الاوتوبيس وتحرك لسانى .
سألت سناء :
ــ ايه رأيك فى آمال ؟
ــ لطيفة ..
ــ مش عارفه .. هى سخيفة النهاردة ؟
ــ ليه .. ؟

سناء لم تشعر بما حدث لى. سكت. تلفتحولى. الاوتوبيس ازدحم ولكنى أرى سيدة تجلس بعيدا لفتت نظرى عيناها . انها جميلة لكنها كعيون الثعبان لاترمش . مخيفة تصلح فى التنويم المغناطيسى . حمدت الله انها تنظر من النافذة ولا تنظر الى . الزحام يشتد . الرجل الواقف أمامى يكاد يقع فوقى . اتجهت الى الوراء والتصقت بالمسند . نظرت اليه . انه يشبه الكبش الاروى . نفس النظرة الميتة المثيرة . تمنيت لو أخفاها بنظارة سوداء . هربت من نظرته . ونظرت الى يدى . انها كبيرة فعلا وكبرها ليس وراثة . ان كف ماما صغيرة وجميلة ، وكذلك أختى وأختى . اذن لا بد أن هنـاك سببا . خبراء الكف يقولون الكف الكبيرة دليل النبوغ والعبقرية والشخصية القوية . ضحكت وتذكرت الامتحان حيث تثبت العبقرية أو تهان . وقفت سناء واستعدت للنزول ، واستعددت أنا بعدها

بأربع محطات . دخلت العمارة . كانت الساعة ألتاسعة مساء . نظر لى البواب وتثاءب وقام يطلب المصـعد . تذكرت القرد العجوز النعسان « اقفل الباب » صرخ عم حسن وعاد يتثاءب سبا عنيفا يشتم به جميع سكان العمارة عداى . أعجبنى التملق وبدأت أحس بقليل من الرضى . وصل المصعد . دخلت فيه . وضغطت على الزرار الخامس . وارتفع بى ببطء وهو يرتعش ويحدث أصوات فرقعة مكتومة كأنه شيال عجوز مهدود الحيل. الأنوار كلها مطفأة . يبدو انهم ناموا . ضغطت الجرس وتذكرت ان آمال لديها مفتاح خاص بها وانها لا تستعمل جرس منزلهم . عدت أضغط الجرس بعصبية . فتحت لى ماما بعد خمس دقائق . قالت وهى تلف الشال على أذنيها وتدعك عينيها : « كفاية لعب بقى واركزى اقرى لك كلمتين » . خلعت ملابسى دون أن أجيب واقتربت من ماما وربت عليها وقربت فمى من أذنها وهمست : «ماما .. بتحبينى ياماما » لكنها لم تسمعنى . كانت فى سابع نومه .

القاهرة ١٩٥٧

في الطريق معك

الغبار منعني من النظر الى عينيك
ولكني أحس بعيونهم .
أسألك : مدينتي مصيدة ؟
مدينتي أحبها وتعذبني .
مدينتي أمي :
أشفق عليها . لا أخافها .
لا أوافقها : لكنني
أستطيع أن أفعل ما تريد .
عجوز مدينتي :
تغضب لو كنت صادقة :
لو أمسكت يدك وقبلتها .

كفاك طفلان أحبهما :
ولدتهما منك عندما نظرت الى ـ
مدينتى لا تكره الأطفال لكن
تغضب : لو رفعت طفلى الى قلبى .

***

أطنان من الشجن تجرها قدماى :
لو تحملنى .
أكاد أقف وأطلب منك :
احملنى .
كتفى تؤلمنى :
مدينتى لا تقبل أن يدثرنى الطفلان .
نافذة الصبر .
الصمت أقرب تناولا .
ثرثرت طويلا وأنا ألوذ من عينيك
بأقدامى .
نسيت كيف تسير أربعة أقدام سويا
أتعلم هكذا .
هكذا .
هكذا .

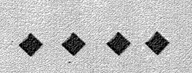
لا تسمح مدينتى
أمى :
مصيدة العيون
لا تسمح .
احملنى .

المحتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٠٦٨ / ٢٠٠١

I.S. B. N 977 - 01 - 7389 - X



بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن على التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠
قرش

